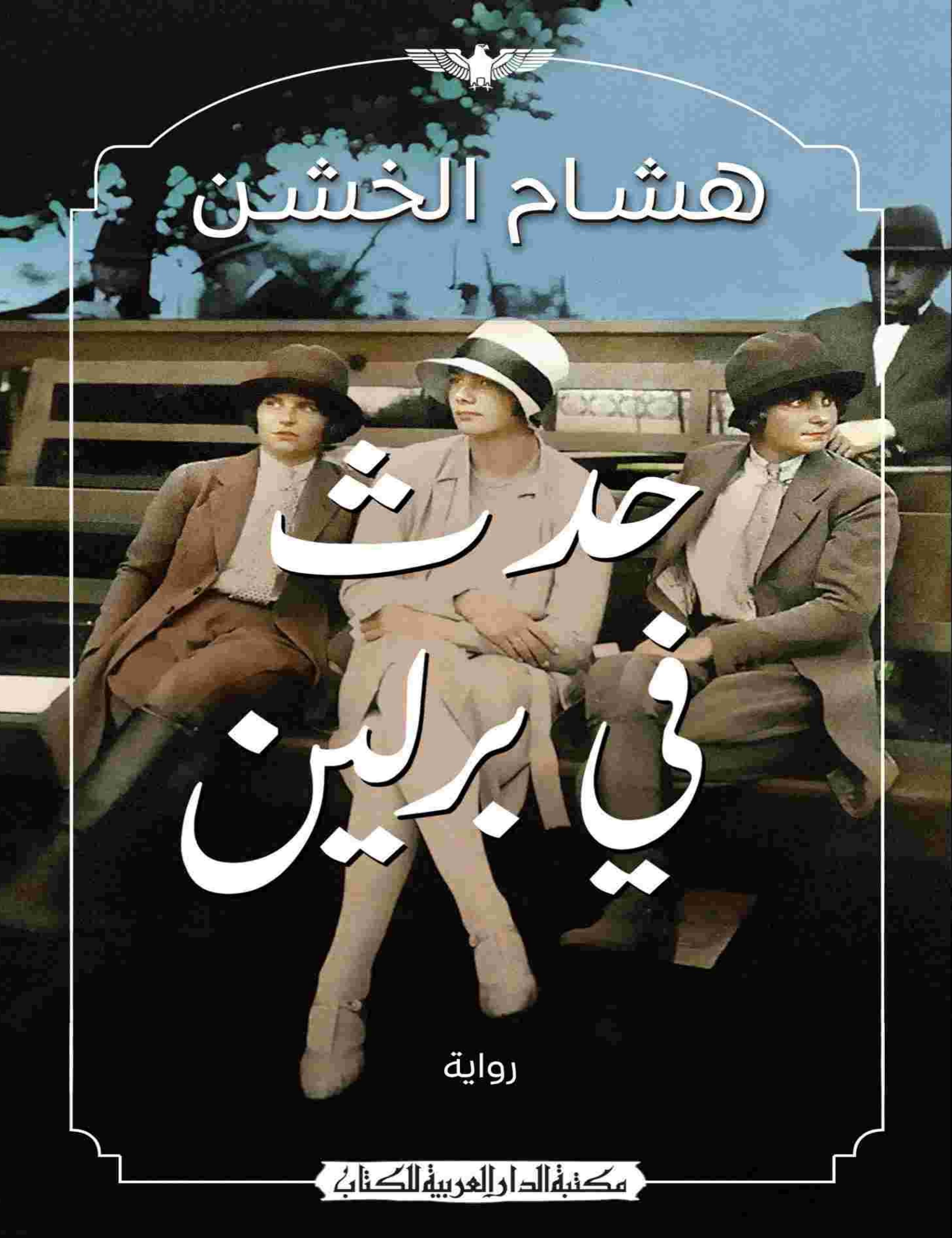

هشام الخشن
حدث في برلين
رواية
مكتبة الدار العربية للكتاب

حدث في برلين

رواية

الخشن، هشام.

حدث في برلين: رواية/هشام الخشن.- ط2.-

القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتاب، 2018.

232ص؛ 20سم.

تدمك: 978 - 977 - 293 - 751 - 6

1- القصص العربية.

ب- العنوان. 813

رقم الإيداع: 2018/ 10503

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

الطبعة الأولى: مايو 2018م

الطبعة الثانية: 2018م

حدث في برلين

رواية

هشام الخشن

مكتبة الدار العربية للكتاب

إهداء

إلى من أضاءت ابتسامته أيام كتابتي لهذه الرواية؛ أدام الله عليك بسمتك..

هشام

لو استرقنا السمع، سيأتينا من بعيد أنين ضحايا البشر عبر التاريخ، يشكون ظلم نظرائهم الذين استظلوا بوجوبية ما اقترفوه من بشاعات.. سيؤرقنا الأنين بعض الوقت، ثم سيخفت سريعًا حين تحيل ذاكرتنا أولئك الضحايا لأرقام مسلسلة في مدونة الزمن.

التاريخ صنيعة حَكائه

برلين ـ ألمانيا

8 يناير 1993

تخافتت أصوات الحضور في صالة المزادات حتى أطبق الصمت على المكان، والمثمن يتبوأ مكانه على منبر خشبي يتصدر القاعة. كان عدد الموجودين أكبر بكثير من المتوقع، مما تسبب في تأخر البدء. أصرت إدارة المكان على أن تكون المقاعد للمزايدين، وأن تتراجع الصحافة بمحرريها ومصوريها إلى النصف الخلفي من القاعة.

من خلف المنبر، أدار الخبير نظره قبل أن يبتلع ريقه وهو يتحضر لبدء إلقاء كلمته:

ـ أيها السادة، أرحب بكم جميعًا، وأود قبل أن نبدأ المزاد أن أتحدث قليلًا عن القطعة الثمينة التي نحن بصدد عرضها اليوم.

أشار إلى الكمان الموضوع إلى جانب المنبر واستمر يقول:

ـ هذه القطعة المدهشة صنعها أنطونيو ستراديڤاري في حقبته الذهبية، ما بين عامي 1700 و1725. كما تعلمون، فإن ستراديڤاري هو أهم وأشهر صناع الكمان في التاريخ، كما أن آلاته لها خواص عجيبة لم يماثلها أحد من حيث نقاء الصوت وقوته. الجزء العلوي من الكمان مصنوع من خشب الصنوبر ومبطن بخشب الصفصاف، أما ظهره فمصنوع من خشب الجوز. جميع الأخشاب معالجة بخلطات اشتهر بها المُصنِّع، أساسها البوراكس وأملاح الصوديوم والبوتاسيوم. الدهان النهائي للكمان من ورنيش الڤيرونيكا بيانكا، المصنوع من بياض البيض والصمغ العربي. وقد تم فحص الكمان والتأكد من كل هذه المواد التي تضفي عليه هذا التميز، وتجعله على هذه الدرجة من الإتقان. الفحص كان بمعرفة خبراء متخصصين من متحف برلين ومتحف السيمثونيان بواشنطن ومتحف الفن الحديث بشيكاغو، وقد أكدوا جميعًا أصلية القطعة وزمن صناعتها. ولذلك أيها السادة أستطيع أن أؤكد لكم أن المعروض أمامكم اليوم قطعة نادرة قل وجودها، وتستحق الاهتمام من محبي الفن وراغبي اقتناء التحف التي لا مثيل لها.

بالنسبة للملكية ومستنداتها، فقد قام فريقنا القانوني بمراجعة المستندات المقدمة من البائعين وتم التحقق منها. واتباعًا لمبادئ

الشفافية التي تستمسك بها مؤسستنا، فقد كانت كل هذه الوثائق موجودة للاطلاع بمقرنا منذ أعلنا عن موعد المزاد، حتى يستطيع كل من لديه نية المشاركة مراجعتها.

أيها السادة، أرجو ألا أكون قد أطلت عليكم بمقدمتي هذه، ولكنني أظنها كانت واجبة قبل البدء. كلمة أخيرة أضيفها، أن هذه القطعة الثمينة ارتبط اسم صانعها بالكمال، حتى إن لفظة «ستراديڤاري» أصبحت تستخدم كمرادف لمعنى كمال الإتقان في كثير من اللغات الأوربية.

يحضر المزاد عديد من المريدين الذين طاروا من جميع أنحاء العالم بغية الحصول على هذا الكمان. كما أن على يساري هنا يقف موظفو شركتنا، وهم على اتصال تليفوني مفتوح بعدة مشترين آخرين ممن لم يحضروا، ولكنهم سيشاركون في المزايدة هاتفيًّا من طوكيو ونيويورك ولوس أنچيلوس وريو دي چانيرو وسيدني.

أيها السادة، سنبدأ المزاد بمبلغ مائة ألف دولار أمريكي، وستكون فئة المزايدة مائة ألف دولار.

ثم علا صوته:

ـ من يعطيني مائة ألف دولار؟

ـ مائة ألف دولار من السيد الجالس في الخلف.

ثم نظر لمن التصقت سماعات التليفونات بأذنهم إلى جانبه:

ـ ثلاثمائة ألف من طوكيو.

ـ نصف مليون من سيدني.

توقف لحظات شاخصًا فيمن جلس في الصف الأول ثم قال:

ـ السيد الجالس أمامي هنا أعطاني سبعمائة ألف دولار.

استمرت الأيدي ترتفع وإيماءات الرءوس تشير إلى الخبير حتى وصل السعر إلى مليوني دولار، وحينها توقف المثمن عن النداء وخاطب الحضور من جديد.

ـ أيها السادة، سنوقف المزاد لحظات أتشاور فيها مع الزملاء ومع

البائعين قبل أن نعاود.

توجه الرجل ومعه اثنان من معاونيه لغرفة المكتب التي خلف الصالة، حيث كانت مالكة الكمان ومعها محاميها يتابعان المزاد من خلال سماعات الصوت.

ـ سيدتي لقد أوقفت المزاد لأنه حطم جميع توقعاتي.

ـ أليس هذا جيدًا؟

ـ بالتأكيد هذا ممتاز، لكن وجب عليّ من باب الأمانة المهنية أن أستعرض معكِ الموقف قبل الاستمرار.

بدا التوتر واضحًا على الرجل، الذي كان يتصبب عرقًا وسط شتاء برليني قارس.

ـ كما تعلمين، كانت أقصى تقييماتنا تفاؤلًا أن نرسي المزاد على مليون دولار على الأكثر. تابعتِ ما حدث وقد وصلنا لما يقرب ضعف هذا المبلغ في أقل من ثلاث دقائق. من الواضح إذًا أننا أخطأنا التوقع، ومن هنا وجب عليّ كمحترف أن أشرككِ في قرار الاستمرار من عدمه.

استمرت السيدة والمحامي منصتين للخبير الذي تابع بقوله:

ـ من الواضح أن الطلب على الكمان أعلى بكثير مما توقعنا. أمامكِ خياران الآن: الاستمرار في المزاد والحصول على أعلى سعر نصل إليه، أو سحب الكمان وإيقاف المزاد. لا تستغربي الخيار الثاني فهو في عالمنا مقامرة قد تضاعف ما تحصلين عليه من المزاد.

سكت برهة وكأنه يتعمد أن يصل بهما لأعلى درجات الفضول قبل أن يردف:

ـ الآن ثبتت قيمة جديدة للكمان ومن خبرتي يوجد بين المزايدين وبالذات ممن لم يحضروا من لن يتوقف عن رفع السعر. هؤلاء المقتنون أموالهم طائلة، ولن يهدأ لبعضهم بال إلا لو حصلوا على مرادهم. إذا أوقفنا المزاد سيقومون باتصالات مباشرة معكِ لشرائه منكِ، وفي هذه الحالة ستكونين في موقف يسمح لكِ بالتفاوض والوصول لصفقة مجزية بعيدًا عن أعين العالم كله. قبل أن تقرري أود أن أكرر أن هذا احتمال وارد جدًّا، ولكنه قد لا يحدث، وبالتالي تعودين إلى عرضه من جديد في المزاد. تعلمنا في صنعتنا أن في حالة إعادة العرض لا نحرز ما وصلنا إليه في المزاد الأول.. أو على الأقل هذا ما

يحدث في أغلب الأحيان.

بعد أن أنهى حديثه استأذن الرجل وغادر هو ومعاونوه غرفة المكتب، تاركًا صاحبة الستراديڤاري ومحاميها ليتشاورا.

ـ ما رأيك؟

تَفكر المحامي قبل أن يرد عليها:

ـ شيء محير جدًّا.. لعل الأفضل أن نوقف المزاد فعلاً وننتظر العروض المباشرة التي يقول إنها ستأتي.

احتاجت بعض الوقت كي تفكر وتقرر في القرار المطلوب منها اتخاذه. كانت تعرف أن قرارها سيؤثر بشكل أكبر على شريكتها التي لم يكن الزمن حنونا عليها ولم يعد الوقت في صالحها. دقائق قليلة احتاجتها قبل أن تطلب من محاميها أن يخطر القائمين على المزاد بإعادة فتحه.

دقائق وعاد الرجل من جديد يتبوأ منبر صالة المزادات:

ـ أيها السادة، أشكر لكم صبركم.. سنعاود الآن المزاد ولكن فئات الزيادة ستصبح نصف مليون دولار.. أيها السادة، من يقول مليونين ونصف المليون دولار؟

من جديد بدأ سباق المزايدة المحموم، حتى وصل السعر خمسة ملايين دولار. ظن الواقف على المنبر أنهم على وشك الوصول لسعر نهائي، بعد أن قل عدد الإيماءات وانحسر التنافس بين الجالس في أول صف والمستيقظ في منتصف ليل طوكيو ليزايد على كمان ستراديڤاري تليفونيًّا. حينذاك، لاحظ الرجل ذا السترة السوداء الذي استمر متوجهًا ناحيته دون توقف حتى وصل إلى جواره. انزعج المثمن ممن كسر النظام وأصبح بمحاذاته. أشار إليه الرجل بأنه يريد أن يحدثه، فاستجاب رغم ابتئاسه من فعلته، ونزل إلى حيث وقف يستمع لما بدأ يهمس به في أذنه. تغيرت ملامح وجهه وهو يطلع على الأوراق التي بيد الرجل المزعج. تفحص الأوراق بتركيز بادٍ، والحضور متعجبون للموقف الذي يحدث أمامهم. أعاد القراءة مرتين أو ثلاثا قبل أن يعود إلى المنبر ليعلن:

ـ أيها السادة، سيتم إيقاف المزاد بناء على أمر المحامي العام، حيث إن هناك بلاغ منازعة على ملكية الكمان.

برلين ـ ألمانيا

9 نوفمبر 1938

نظرة أخيرة في المرآة كي أتأكد أن هيئتي بلا شائبة. تنّورتي الزرقاء تتناغم مع ربطة عنق بنفس اللون وقميصي الأبيض ناصع كما يتوجب. أمسكت بالسترة البنية وبدأت في لبسها وأنا أنظر لضفيرتيّ الذهبيتين تبروزان وجهي. ابتسمت وأنا أنظر لأدوات التجميل التي يعلوها التراب أسفل المرآة. لا نحتاج نحن الآريين لهذه الأدوات؛ تستعملها النساء الأدنى من الزنجيات ومثيلاتهن. نظرة أخيرة في المرآة أكدت جاهزيتي للذهاب لتجمع رابطة الفتيات الألمانيات. كنت أنتظر هذه التجمعات الأسبوعية بفارغ الصبر وأنا فخورة بهذا الانتماء، وبما يعِدِّوننا له من عظمة قادمة كانت قد غابت مؤخرًا عن بلدي ألمانيا العظمى. وما زاد تعلقي بلقاءات الرابطة كانت تمشية الرجوع مع لوكاس هانتسمان، جاري وأحد قيادات اتحاد شباب العمال الألماني في برلين.

فوجئت بوجود أبي في البيت جالسًا مع أمي وأختي هيلدا في غرفة الجلوس، هو الذي لا يعود من عمله بقسم الشرطة قبل منتصف الليل.. لم يعطني الوقت لأتساءل عن سبب وجوده أول المساء في البيت، إذ بادرني:

ـ لا خروج اليوم.

لم أعهد من أبي جنرال الشرطة كثرة التحاور، وكنت أعلم أنه متى أصدر تعليمات فهي نهائية تمامًا، وكأني واحدة من جنود مخفره. نظرت إليه وهو في زيه الرسمي المزدان بوسام الثمانية عشر عامًا من الخدمة، الذي حباه به الفوهرر * قبل شهرين. تجرأت أن أناقش أمره، ولِمَ لا؟! وقد علمونا في الرابطة أن من حقنا رفض كل ما يعيق ولاءنا للوطن:

ـ ولكن اجتماع الرابطة الأسبوعي اليوم.

ـ قلت لا خروج.. الشوارع لن تكون آمنة.

الحزم واللهجة الآمرة أرجعاني سريعًا لما اعتدته من التزام بإملاءات أبي وأمي. نظرت لأمي لعلها تهب لنجدتي وإن كان بأمل ضعيف، لما

أعرفه من كرهها للرابطة ولكل ما تمثله الاجتماعات التي أداوم عليها. هذه مشكلة جيل أمي: لا يدركون أن جيلي سينهض من جديد بالأرض الأب، وسيُعيد لألمانيا عظمتها المهدرة.

الأرض الأب: كم في هذا التعبير من قوة! هذا ما تستحقه ألمانيا، فهي ليست ككل البلاد، ليست الأرض الأم كما يحلو لشعوب الأمم الضعيفة أن تطلق على أوطانها.

محاولة أخيرة حاولتها لعل أبي يتراجع عن تعليماته:

- سيكون معي لوكاس يا أبي، فلا تقلق.

ـ قلت لا خروج.. انتهى.

استمررنا جالسين في شبه صمت، أنا وأختي وأبواي. كانت أمي تمسك بإنجيلها في يد ومسبحتها في الأخرى. لم يكن هناك كثير من المواضيع تقبل المناقشة بيني وبينهم، فقد ازداد تدين أمي في الآونة الأخيرة، وازدادت معه نقمتها على ما يجري في البلاد، فوجهت غضبها هذا عليّ وعلى التصاقي بالرابطة والحزب. هيلدا كانت أقرب لأمي، ورفضت رفضًا باتًّا محاولاتي المضنية كي أضمها إلى الرابطة، مهما حاولت أن أغريها بالأوقات المفرحة التي نمضيها معًا في اجتماعاتنا وفي الرحلات التي ننظمها، وما تشتمل عليه من فرص للقاء الفتيان. أما الجنرال، فكعادته كان الالتزام عنوان ومفتاح شخصيته؛ التزام في عمله كشرطي، والتزام في عدم الإكثار من الكلام معنا، والتزام في تأدية كل ما يراه واجبًا. في هذا اليوم أقلقني صمته، رغم تماشي ذلك مع طبيعته. ظهر جليًّا في عينيه أن هناك ما يشغل باله. أجزمت أن في جعبته معلومة لن يُطلعنا عليها، سببت توتره البادي.

ما لبث الصمت الذي خيم على غرفة الجلوس أن قطعته جلبة أتت من الخارج. هتافات متتالية لألمانيا العظمى وأخرى تنادي بخروج أعداء الأمة. وقف أربعتنا ننظر من النافذة، فرأينا مجموعة من شباب الحي يقودهم لوكاس يكررون الهتافات ضد أعداء الوطن، وعروقهم نافرة من فرط الحماس. حين وصلوا أمام منزلنا، توقفوا في مواجهة محل مائير للرهونات، وارتفع هتافهم مع الحماس الزائد. لمحت مائير وأسرته ينظرون من شباك منزلهم، الذي يعلو دكانهم في رعب ظاهر. في لحظة رفع لوكاس يده لأعلى، فانقطع الهتاف تمامًا ووقف الشباب من خلفه متنمرين. أنزل يده وأشار إلى الأمام، فبدأ الهجوم على الحانوت. في ثوانٍ تحطم كل زجاج المكان، ليبدأ من بعدها اقتحام الشباب على خلفية تهشيم لا يتوقف.

حين خرج الفتيان كانت أرضية الشارع قد امتلأت بكسر الزجاج، الذي صار يسطع أسفل ضوء المصابيح كفصوص الكريستال. لم يكتفوا بما امتلأ به الشارع من شظايا متلألئة، فبدأوا في الهتاف من جديد، ومع إشارة جديدة من لوكاس تواصل قذفهم لنوافذ المنزل محطمين إياها بكل ما استطاعت أياديهم أن تصل إليه. مشهد تكرر كما علمنا فيما بعد مع أغلب محلات وبيوت يهود ألمانيا في تلك الليلة.

فجأة، وسط الشغب والدمار الذي ظل مستمرًّا بالشارع، ومن ناصية بعيدة ظهرت راشيل مائير، ابنة جارنا. كانت صديقة لي يومًا، وإن صرت أتجنبها بعد المحاضرات التي تلقيتها عن قومها اليهود، عن مؤامراتهم المستمرة ضد ألمانيا وما تسببوا فيه من خراب قبل وبعد الحرب. اتجهت أنظارنا جميعًا نحوها، وقد ارتبكت وتمهلت لحظات حينما رأت حالة الهجوم العنيف على منزلها، قبل أن تسرع بخطواتها من جديد نحوه. لفتت أنظار الفتيان المتحمسين بالشارع، وعلى رأسهم لوكاس الذي كان يعرفها جيدًا. في لحظة، ودون تنسيق مسبق، اصطفوا متنمرين في انتظار وصولها حيث يقفون. ازدادت ضربات قلبي وأنا أراها مستمرة في تقدمها نحوهم، غير معنية بالخطر المحدق بها حيث تدنو. عم السكون المكان، وتسمَّرت أعين لوكاس وثلته على راشيل المستمرة في السير دون تردد نحو باب منزلها. في اللحظة التي بدا أنهم سيتجهون نحوها، علا صوت أبي، الذي لم ألحظ نزوله إلى الشارع:

ـ ليليان، لماذا تأخرتِ؟ ادخلي إلى المنزل سريعًا!

ليليان! لماذا ناداها أبي باسمي؟ ثبت لوكاس ورفاقه في أماكنهم، أمام هيبة أبي وزيه الشرطي. أظن أن لوكاس تفاجأ مثلي حين ناداها أبي باسمي. في وسط هذه الحالة من الذهول، وجدت أبي يمسك بها من ساعدها ويقودها لداخل منزلنا. في نافذة المنزل المواجه، أظنني رأيت نظرة ذعر شديد من وراء النوافذ المهشمة، في أعين مائير وعائلته.

(*) (*) لقب الزعيم النازي أدولف هتلر، وتعني القائد.

برلين ـ ألمانيا

1 ديسمبر 1939

من ميدان بوتسدامر بلاتز، نزلتُ من الأتوبيس لأتوجه لشارع الأمير ألبريخت. كان الجليد الذي تساقط مساءً يضيف بياضًا على الأرصفة، في حين لفح وجهي صقيع ديسمبر البرليني، فأحكمتُ إغلاق معطفي بينما أقترب من المبنى المهيب. مائة خطوة اعتدتها قبل أن أصل لمدخل بناية إدارة الأمن العام للرايخ * الثالث. رغم مرور شهر الآن على توظيفي، ما زلت أمتلئ بالهيبة كل يوم وأنا أمر بنقطة التفتيش عند المدخل، وأُظهر بفخر إثبات أني جزء من منظومة الأمن بألمانيا العظمى. سيكون اليوم مميزًا، حيث سأقوم بالإبلاغ عن المعلومات التي حصلت عليها.

كالعادة أخذتُ نفسًا عميقًا وأنا أتملى في جمال البهو الفخيم، قبل أن آخذ طريقي لمكتبي بالدور الأرضي، بينما أفكك أزرار معطفي بعد أن تبدلت برودة الشارع بدفء مقر الأمن العام للرايخ.

تملكتني الهيبة ذات يوم حين أخبرتني رئيسة رابطة الفتيات الألمانيات أنها رشحتني للعمل في جهاز الأمن. كانت مقتضبة فيما قالته عن الوظيفة وطبيعة العمل. أكدت عليّ مرارًا أن أكون موجودة في التاسعة صباحًا أول نوفمبر في العنوان الشهير. لم تعطِني حتى اسمًا لمن سألتقيه، بل اكتفت بأن اسمي سيكون على بوابة الأمن، ومن هناك سيأخذونني لمن في انتظاري.

ـ ليليان شميدت.

اختفت الابتسامة من وجه فرد الأمن وهو يبحث عن اسمي في رزمة الأوراق التي أمامه، ثم انتفض واقفًا وبدأ يمشي أمامي بعد أن أمرني:

ـ اتبعيني.

سرعان ما وجدتُ نفسي أمام ضابط مكفهر الوجه، جالس أمام مكتب بدا مهمًّا في الدور الأرضي. حين أخبره الجندي الذي صاحبني عن اسمي التفت إليّ قائلًا:

ـ انتظري هنا.

قالها بينما يومئ نحو كرسي أمامه لكي أجلس. كانت نبضات قلبي في حالة تسابق وقد تملكتني الهيبة مما أحاط بي. رغم القلق امتلأت نفسي بمشاعر سرور وفخر مبعثها أنني أوشك أن أكون جزءًا من هذه العظمة الألمانية التي تنبعث من كل تفصيلة في المكان.

اللهجة الآمرة من الضابط عادت من جديد، وهو يفتح لي باب مدخل الغرفة الذي وقف أمامه مشيرًا إليّ بالدخول:

ـ السيد أيخمان سيراكِ الآن.

وجدتُ نفسي أدخل حجرة شديدة الاتساع، يتوسطها مكتب ضخم قبع خلفه رجل منشغل في قراءة أوراق ملف أمسكه بيسراه. عدة خطوات وصرت واقفة أمامه، وما زال مستغرقًا فيما يقرأ. مرت لحظات ثم رفع رأسه ونظر إليّ مليًّا يتفحصني قبل أن يشير إليّ أن أجلس. استمر سكوته وهو يقلب في أوراق ملف رفعه عن جانب المكتب الذي كان منظمًا بعناية: الملفات مرصوصة الواحد فوق الآخر عن يساره، وعن يمينه رزمة أوراق بيضاء بموازاتها قلمان تعامدا على حبارة مملوءة حتى آخرها.

ـ ليليان شميدت.

أومأت برأسي ردًّا على ندائه لاسمي.

ـ ملفك جيد ونشاطك مميز في الرابطة.

مرة أخرى لم أدرِ ما الرد المناسب.

ـ أحتاج إلى سكرتيرة جيدة.. النظام والانضباط أهم ما أريده..

لا مكان ولا مجال للخطأ في عملي.

تلعثمتُ وأنا أوافقه:

ـ أكيد.

ـ ما علاقتكِ باليهود؟

فاجأني السؤال فاستمررت صامتة.

ـ هل لديكِ أصدقاء منهم؟

ـ كان لي زميلات في المدرسة وبعض الجيران.. ولكني بعد أن علمتُ ما يمثلونه من شر وخطر على ألمانيا قطعتُ أي اتصال بهم.

ـ والدك الجنرال شميدت متعاطف معهم.

لم أدرِ إن كان هذا سؤالًا أم معلومة، لكنني كانت لديّ الإجابة.

ـ والدي أحيل للتقاعد لهذا السبب.. لعل في ملفي يا سيدي أن ألمانيا ومجدها أهم عندي من أي شيء، حتى أبي وأمي.. لم أرضَ يومًا عن تعاطف أبي معهم، وكدنا لا نتكلم لهذا السبب.

ـ وما الذي أشعركِ بهذا التعاطف؟

ـ واقعة حدثت ليلة الكريستال ** حين تدخل ليحمي جارة يهودية.

عاد الصمت من جديد، ونظره يتناوب تفحصي ومعاودة القراءة فيما يحويه الملف.

ـ عظيم يا ليليان.. ستبدئين العمل من الغد.. اذهبي الآن إلى الضابط فريدريك بالخارج ليستخرج لكِ تصاريحك الأمنية.

حينذاك وضع الملف أسفل الرصة التي أمامه، وسحب ملفًّا آخر فتحه وبدأ القراءة فيه. استمررت في جلستي لحظات قبل أن أدرك أنه أنهى اللقاء. قمتُ من فوري متجهة إلى الخارج، ليعود ويستوقفني قبل أن أفتح باب الغرفة، بآخر تعليماته:

ـ عملكِ هنا يستلزم السرية التامة وأي خطأ معناه المحاكمة بتهمة الخيانة.. لن تفصحي لأحد أنك موظفة هنا أو أنك تعملين معي.. اسمي لا تذكريه لأحد.. ولا حتى أبيك وأمك.. ستقولين أنك تعملين موظفة بإدارة المستشفى العام.. مفهوم؟! يحيا هتلر.

جعلني الشهر الفائت أدرك المخاطر التي تحيط بألمانيا وبمن

لا يريدونها عظيمة كما كانت وكما تستحق. العمل مع السيد أيخمان مدير الشئون اليهودية جعلني أدرك جسامة الشرور التي يمثلها هؤلاء اليهود. كل يوم كنت أوقن أكثر وأكثر بلزام إبعادهم حتى نتقي شرورهم. الخطة التي كان يعمل عليها أيخمان لتجميعهم ومن بعد ذلك تهجيرهم إلى مدغشقر كانت تستهلك الكثير من الوقت، ما بين مراسلات إلى القيادة العليا واجتماعات مع آخرين ممن يعنيهم الأمر. في نفس الوقت، كانت التعليمات المستمرة تصدر بحصرهم

وتجميعهم في أحياء ومناطق معينة في ألمانيا، وكذلك في بولندا وغيرها من الأراضي التي اجتاحها الفوهرر.

اليوم سأساهم مساهمة بسيطة في دفع شرور أعداء الوطن. منذ استمعتُ بالأمس إلى الحديث الذي دار في منزلنا وأنا آرقة. لم يكن لدي تردد أو شك فيما يجب عليّ فعله، ولكني لم أستطع النوم،

ولا الصبر حتى يأتي الصباح وأفعل ما تمليه عليّ وطنيتي.

أول شيء فعلته بعدما علَّقتُ معطفي كان أن دخلتُ من فوري لمكتب قائدي لأبلغه تفاصيل ما سمعتُ بالأمس.

(*) (*) الاسم الرسمي لألمانيا في الفترة من 1871 إلى 1945، ويعني الإمبراطورية الألمانية.

(**) (*) مصطلح أطلق على ما حدث ليلتي 9،10 نوفمبر 1938 ضد يهود ألمانيا، حيث حطمت محالهم وبيوتهم واعتقل المئات منهم، واكتسبت الليلة اسمها لكثرة الزجاج المحطم في الشوارع.

برلين ـ ألمانيا

30 نوفمبر 1939

منذ ليلة الكريستال الكئيبة، ازدادت معاناة مائير كلما دخل دكانه. لم يستطع تجاوز كم الدمار الذي أصاب المكان يومئذ، ولا أن يعيد الحال لما كان عليه. كانت تلك الليلة إعلانًا رسميًّا لحكومة الرايخ الثالث عن أن اليهود عدوها الرسمي. مُنعت شركات التأمين من دفع التعويضات له ولغيره من المتضررين، فشق على أغلبهم أن يعيدوا أحوالهم لما كانت عليه من فرط ما تكبدوا. صعب عليه يومًا بعد يوم أن يرى تدهور حال محل الرهونات الذي ورثه عن أبيه، الذي علمه الصنعة التي بدأها جدوده في نفس المكان في الحي القديم ببرلين. اليوم، كان حزنه مضاعفًا وهو يعلم أنه على وشك ترك المكان الذي ترعرع فيه، والعمل الذي لم يعرف غيره، إلى مجهول صار لا بد من الهرب إليه.

يجول بنظره في المكان فيجده وقد أصبح معدمًا. الأرفف والفاترينات التي اكتظت سنين بالعاديات والمقتنيات الثمينة خوت، ولم يتبقَّ فوقها إلا القليل مما لم تطله أيدي الشباب الموتور حماسًا، الذين نفذوا تعليمات قياداتهم بتدمير كل ما يصلون إليه من ممتلكات أمثاله، ممن أصبحوا أعداء الوطن. لا يستطيع أحد أن يتهمه بأنه لم يرفض الاستسلام، وظل يحاول أن يعيد لمحله بريقه الذي كان. لكن الظروف التي أصبح بلده يمر بها غدت أقوى من أية محاولة. صار هو وأهله مشبوهين، بل صاروا مجبرين على تعريف أنفسهم بلبس نجمة على أذرعهم حتى يعلم من يراهم أنهم من المنبوذين. وبالتوازي تواترت أخبار كثيرة عن القبض على كثير من اليهود، وتجميعهم في جيتوهات * محدد لهم فيها خطوط سيرهم وأوقاتها. تعدت الأخبار مرحلة أن تكون شائعات مثيرة، إذ شملت أوامر القبض والتجميع كثيرًا من أصدقاء وأقارب مائير نفسه. حتى الحاخام حذره ونصحه السبت الماضي:

ـ كل رجل لنفسه يا مائير، لم يعد الأمر بسيطًا.

يلفت نظره الكمان القابع على الرف الأوسط فوق خزينة المحل، كامن في مكانه لسنوات الآن، دون أن يعود صاحبه للمطالبة به. يوم رهنه ذلك الشاب أيقن مائير أنه لن يعود مرة أخرى ليستعيده. كل رهنية وراءها قصة وحكاية؛ ذلك ما خبره مائير من عمله. كان جزءًا من مهارته في عمله أن يتوقع من سيعود ومن سيترك ما رهنه. توقعه هذا

كان أساسيًّا في تثمينه لما يُعرض عليه؛ يبخس ما يظن أن مالكه سيتركه دون عودة، ويعلي ما يدفعه فيما يرى أنه سيستعاد، فتعلو معها فائدة القرض والربح الذي يعود من ورائه.

هل يتذكر ذلك الشاب بعينه لأنه لم يرهن آلات موسيقية مثل هذا الكمان، أم لما كان عليه الفتى من توتر وهو يعرضه عليه؟

ـ أريد أن أرهن هذا الكمان.

قالها بتلعثم وهو يوالي النظر إلى الفتاة الشقراء، التي وقفت تنتظره عند مدخل المحل.

ـ لا يوجد طلب كبير على الآلات الموسيقية هذه الأيام.

كانت هذه إجابة مائير المعتادة فيما يخص كل ما يعرض عليه. بداية أدمنها لبخس القيمة التي ينتظرها طالب الرهن.

ـ هذا كمان مميز جدًّا وله قيمة تاريخية.

ـ يمكنك إذًا الذهاب به لدار الأوبرا.. أكيد سيثمنون قصة هذا الكمان.

من الكيباه ** التي غطت مؤخرة رأسه، علم مائير أنه يهودي، ومن ملبسه أدرك انتماءه لعائلة ميسورة الحال إلى حد كبير. ما زال الشاب متوترًا تتراوح نظراته بين فتاته المنتظرة عند المدخل والكمان. اعتاد مائير أن يغزل في ذهنه خيوطًا لحكاية زبونه، وما يضطره لرهن عادة أقيم وأثمن ما يمتلكون.

ـ أتعزف عليه؟

- نعم.. منذ صغري.. حلمي أن أكون عازفًا في أوركسترا برلين.

ـ ثلاثين رايخ مارك * .**

قالها مائير وهو يعلم أن قيمة الكمان عشر مرات هذه القيمة.

ـ وهذا رغم أنني أعلم أنك لن تردها ولن تعود لأخذه.. وأنا شبه متأكد أن بيعه سيكون صعبًا.

في ذهنه كان متأكدًا أن الفتى وفتاته يخططان للهروب والزواج بعيدًا عن عائلتيهما. عائلتها الألمانية ترفض اليهودي، وأمه لن تقبل بغير

بنت دينه زوجة له كي تضمن أن يكون نسله على دينه.

يتذكر وجه الشاب مملوءًا تعاسة وهو يأخذ منه أربعين رايخ مارك نقده إياها على مضض، ويستدير خارجًا من المحل بخطوات من يشيع جنازة.

* * *

أصبحت أيام الجنرال شميدت متشابهة لا جديد فيها منذ أُحيل إلى التقاعد. لم يكن حزنه على تقاعده، فقد عقل دائمًا أن ذلك الوضع آت بعدما شارف الستين. ولكن ما أثقل قلبه كانت الطريقة التي رآها مهينة لرجل مثله، خدم ألمانيا عن حب واقتناع وحارب حربها العظمى بشجاعة نال عنها الأنواط. في يوم وليلة يبلغونه بانتهاء خدمته، ويطلبون منه أن ينهي أوراقه، بل كاد ذلك الشاب المتعجرف الذي أخطره بالقرار أن يبلغه بأنه أصبح شخصًا غير مرغوب فيه، في نفس قسم الشرطة الذي كانت ترتج جدرانه لأوامره.

أصبح استمراره ثقيلًا وسط الأوضاع التي تغيرت سريعًا منذ تولى الاشتراكيون الحكم بقيادة هتلر. تعلم طوال خدمته أن أهم واجباته أن يحمي المواطنين دون تمييز. لعل متاعبه بدأت ومن بعدها استشرت يوم جاءتهم التعليمات بألا يتدخلوا في أحداث الليلة الليلاء، التي جمَّلوها بأن أطلقوا عليها ليلة الكريستال. صعب عليه جدًّا أن تقف الشرطة، التي دائمًا ما تفاخر بأنه أحد قياداتها، موقف المتفرج والغوغاء يهاجمون ويكسرون ويحرقون أهدافهم. لم يهمه إن كانوا يعاقبون من يستنزفون اقتصاد ألمانيا، بقدر ما آلمه أن يخرق القانون الذي تربى على تبجيله، دون رادع ولا تدخل ممن تحملوا أمانة أن يسود المجتمع السلم والأمان. تسارع الأحداث من بعدها أوقعه في كثير من المواقف، مال فيها في كل مرة نحو ما ظنه عدلًا؛ في حين فسره القائمون على البلاد بأنه تعاطف مع عدو داخلي، أرادوا أن يتفادوا سُميَّته ويقتلعوا جذوره التي يرونها شيطانية من أرض الوطن.

حين دق جرس بيته ذلك المساء، لم يكن يتوقع تلك الزيارة المفاجئة من جاره مائير.

ـ زيارتي متأخرة جدًّا، ولكنني أريدك أن تعلم أن جميلك عليّ وعلى عائلتي لن ننساه يومًا.

لم يفهم الجنرال عما يتحدث اليهودي العجوز، الذي لم يكن يحبه ولا يحب طبيعة عمله كمرابٍ يمتص دماء المحتاجين، تحت ستار محل الرهونات الذي يديره.

فسر مائير ما قاله:

ـ لن ننسى لك إنقاذك لراشيل يوم أوشك الشباب على الانقضاض عليها.

دعاه الجنرال للدخول وهو يقول:

ـ فعلتُ ما كان سيفعله أي عاقل وسط جنون هذه الليلة.. هؤلاء الشباب منقادون في اتجاهات خاطئة يشعل وقودها حبهم المطلق لألمانيا.

ـ جنرال شميدت، هذا الكمان مركون لدي منذ سنين، وفكرت أنه سيكون ذا جدوى أكبر في يد من يستطيع العزف عليه، لذلك أهديه لابنتيك ليليان وهيلدا، لعلهما تتقنان عزفه يومًا.. أرجو أن تعتبره تقديرًا بسيطًا لما فعلتَ مع ابنتي.

شكره الجنرال وقبِل منه الهدية، ودعاه لأن يشرب معه كوبًا من البيرة، اعتذر عنها مائير بدعوى أنه لا يحتسي الكحول. لم يكن هناك مزيد من الحديث ليتبادلاه، وهما من جاورا بعضهما بعضا سنين دون أن يتوغلا في معرفة متبادلة. لذلك استمرت علاقتهما تحييها إيماءة رأس تبادلية لا غير، كلما التقت أعينهما عبر أرصفة الشارع الذي يقطنانه.

عند باب المنزل توقف مائير مترددًا بعدما فتحه لكي يغادر، وأدار جذعه مفاتحًا الجنرال في حقيقة ما أتى من أجله:

ـ سيادة الجنرال، كما ترى لم تعد برلين ولا ألمانيا كلها آمنة لمثلي ولا لعائلتي.. أعلم أنها قد تكون أحوالًا مؤقتة، ولكنني أجد أن تركي للبلاد حاليًا هو أأمن ما أستطيع عمله لراشيل وأخيها.

لم يفهم الجنرال لما يشاركه مائير تلك الأفكار، فلم يكونا يومًا صديقين حتى يبوح له بمثل هذا.

ـ تعرف أن حركة عائلة مثلنا ليست ميسورة في الوقت الحالي، دون تصاريح وموافقات رسمية.. أعلم أن لديك كثيرًا من النفوذ والعلاقات، فهل أطمع أن تساعدني في تصريح لعائلتي للخروج من برلين.. وليكن تصريحًا بأن أزور أخًا أو أمًّا مريضة في أي مكان خارج المدينة.. من هناك سأتصرف.. ستنقذ عائلة كاملة من مصير أسود ينتظرها.

قبل أن يرد الجنرال عليه، تراءى له ظل يختال خلف الباب نصف المفتوح، فمد يده فاتحًا الباب عن آخره، ليجد ليليان واقفة تتنصت

على الحديث.

(*) (*) منطقة يعيش فيها مجموعة من السكان، طوعًا أو كرهًا، لهم خلفية عرقية أو دينية واحدة. ومعناها المعزل.

(**) (*) غطاء رأس صغير ومستدير الشكل، يرتديه اليهود الرجال أثناء الصلاة.

(***) (*) الرايخ مارك: عملة الدولة الألمانية أيام حكم النازي.

القاهرة ـ مصر

20 أكتوبر 1992

كان الرجل الجالس أمامي نموذجًا للألماني النازي، الذي لطالما صوّرته أفلام الحرب العالمية الثانية؛ أشقر، صارم الوجه، تقاطيعه حادة الالتقاءات. لم تعلُ أو تنخفض نبرة صوته مرة واحدة وهو يتناوب لطمي هازًّا جذوري، ويكاد يقتلع أساس كنيتي ويزيلها مما ظننته أرضًا راسخة غير قابلة للاهتزاز. سكت لحظات وتنفس بعمق قبل أن يبادرني بما خطط أن يكون قول النهاية في هذه المقابلة.

أخطرني بألمانيته التي ذكرتني بالراهبات اللوائي علمنني اللغة في المدرسة الألمانية بباب اللوق:

ـ سأحتاج جواز سفرك من أجل الحصول على تأشيرة دخول ألمانيا، وقد وعدني القنصل بإنهائها خلال يومين على الأكثر.

ثم أضاف وهو ينهض واقفًا مادًّا يده محييًا:

ـ السفر الأسبوع القادم.

أكانت صرامته أم إصراره هو ما صدمني؟ لا أدري؛ ولكني باستسلام تام مددت يدي داخل حقيبتي القابعة في درج المكتب، وسحبت جواز سفري لأعطيه إليه.

لم أدرِ ما وجب عليَّ فعله. كنت أدرك أن قدميَّ لن تسانداني إن أردت الوقوف. توقف لدي إحساس الزمن تمامًا، ثم ما لبثت أن وجدت نفسي أنهض من كرسي المكتب وأسحب حقيبتي مارقة في طرقات المؤسسة الأمريكية التي أعمل بها. أظنني سمعت مديري يسألني:

ـ ليلى، إلى أين؟

أوقفت تاكسيًّا حاله حال مدينته البائسة. بدا أن العربة تعاني من آثار زلزال الأسبوع الماضي في القاهرة. المشهد من نافذة السيارة يوحي للناظر بأن الزلزال لا يزال مستمرًّا في رج أركان المدينة. حين ارتعشت المباني قبل أسبوع وشمت حالة وجوم على وجوه السائرين فوق أرصفة العاصمة. أغبط نفسي على ثباتي ذلك اليوم، بل إنني سخرت كثيرًا من زملاء زادت رعشتهم عدة ريخترات عن الزلزال ذاته.

اليوم أرى مَن حولي في ثبات بينما أنا الوجلة إلى حد الانهيار التام، وكأنني أحد المباني التي أسيء تأسيسها فتصدع أغلبها وانهار بعضها. شعرت أن ما تبقى بداخلي ركام إنسانة ظنت نفسها متجذرة صلبة التأسيس، لا يمكن أن تهتز. أدركت أن زلزال القاهرة رجة بسيطة إذا ما قورن بزلزال ليلى الذي يموج بداخلي.

كانت السيارة تسير ببطء وسط زحام القاهرة المعتاد. السائق بدا لي كملاكم عجوز يتبادل اللكمات مع من حوله على حلبة الأسفلت. يلكم يمينًا ليتجه يسارًا ويناور بخطافية لكي يستطيع الوصول لركنة، ثم يقف هو وعربته المفككة ليلتقطا أنفساهما قبل أن يبدأ من جديد في اللكم بإصرار، ليصل بي إلى العنوان الذي أعطيته إياه. اختلط الأمر عليّ في لحظة، فلم أوقن إن كنت أعطيته عنوان فريد أم عنوان البيت.

أنظر من نافذة السيارة فأرى عبوس المشاة الذي تملكهم منذ الهزة الأرضية، حين أدركوا أن الأرض التي يخطون عليها ليست طيبة كما قيل لهم. احترت إن كان عبوسهم انعكاسًا لما بي أم أن الحياة حقيقة بهذه القتامة. أود أن أصرخ بهم بأن ما مروا به بسيط تمامًا لو قارنوه بما أخبرني به السيد هيلموت. أشيح بوجهي عنهم وأنظر للناحية الأخرى، فأجد النيل عابسًا يسري بضجر صامت، يئن من هوانه على سكان ضفافه.

أفاقتني رتابة النيل، فأدركت أنني اقتربت مما كان منزلي حين تركته هذا الصباح. تذكرت أن حيرتي ما بين الركض إلى فريد أو الذهاب لمواجهة البيت لم تطل، إذ أيقنت حاجتي لسرعة حسم إن كان هيلموت كاذبًا مخادعًا أم أنه الوحيد الذي صدَقني الحكي وأسدل الستار على خيال فُرض عليّ منذ ولدت. ما زال بي بصيص أمل أن تكون مستنداته وبراهينه خدعة شريرة.

من وسط الكورنيش دلف التاكسي إلى شوارع جاردن سيتي؛ السيدة العجوز التي لا تزال تصارع من أجل الحفاظ على رونقها. معركة قاسية تخوضها شوارع الأرستقراطية أمام هجوم تتاري من دعاة التجديد، الذين يطمسون يومًا بعد يوم آثار عظمة كادت دلائلها تندثر. أنظر لمبانيها الطاعنة في السن، فإخالها في ريعانها مقارنة بمائة سنة أو تزيد أضيفت لعمري منذ لقاء الألماني.

قاطع أفكاري صوته الأجش:

ـ هنا؟

فوجئت بسائق التاكسي وقد توقف أمام البيت، دونما أسئلة مسبقة أو استيضاح عن العنوان كما اعتدت من نظرائه. بيت العائلة الأرستقراطية، عائلة أمي، وقف إلى جواري راسخًا بملامحه التي لطالما اطمأن إليها قلبي. هذه المرة شعرت بأنني لست ابنته، وبأنه مجرد حلقة من حلقات الوهم التي قامت عليها حياتي.

أظن أن عم آدم البواب تفاجأ بوصولي مبكرة عن موعدي المعتاد، فانتفض من اضطجاعه بالمدخل بينما أركض أمامه نحو السلم. سمعته بعد أن مررت به يناديني:

ـ خير يا أستاذة ليلى؟!

لم أرد عليه وطويت السلالم العتيقة التي لم يقدر عليها الزمن في سرعة قياسية. أمام باب الشقة توقفت مشلولة تمامًا، أستعيد أنفاسي التي تلاحقت. وبعد برهة بدأت أنبش في حقيبتي بجنون عن مفاتيحي. أظن أنني رأيت المفاتيح، ولكنني استمررت مع هذا أقلب في الحقيبة وكأنني أؤخر دخولي. توقفت عن تقليب الحقيبة أستجمع شتات نفسي، فسندت بظهري على الباب وسط أنفاسي اللاهثة. تعجبت أنني لم أذرف دمعة واحدة منذ زيارة السيد هيلموت. في الأفلام قديمة ومعاصرة تنساب دموع البطلة حين تواجه بما عرفت. استدعيت الدموع فأبت؛ لعلي أستجدي أملًا واهنًا بأن يكون حديث الألماني خيالًا لم يحدث ولم يكُن.

التففت، هوت يدي على الجرس ترنه دون هوادة، بإصرار جريح يحتاج لمن يداويه. فتحت أمي الباب والفزع يغطي وجهها. ارتميت في حضنها وسط شلال دموع هادر أخذ ينهمر من عينيّ. تلعثمت واختلطت الأحرف والكلمات ليصير صوتي أقرب إلى الأنين، بينما أهمهم بسؤالي الذي لا يعلم سواها إجابته القاطعة:

ـ أمي.. الحقيقة أرجوكِ!

بوينس أيرس ـ الأرجنتين

11 مايو 1960

لم يعبأ الرجال المنتظرون بشارع غاريبالدي بالرذاذ الخريفي الذي بدأ يبلل وجوههم. كان القلق ما شغلهم حين وصل الأتوبيس رقم 203 في ميعاده تمام السابعة مساءً وأربعين دقيقة كالمعتاد، ولم يترجل منه من خططوا لاستقباله. حين توقف الأتوبيس عند محطته على قمة الشارع، ارتفعت نبضات قلوبهم وكل منهم يتخذ موقعه حسب ما تدربوا عليه لثلاثة أسابيع مضت، لكن استنفارهم ما لبث أن ذهب أدراج الرياح الخريفية التي لفحت وجوههم، بينما يغادر الأتوبيس دون أن ينزل أحد عند المحطة، التي تسمرت نظراتهم عليها.

مر بذهن كل منهم ما كانوا قد حفظوه عن ظهر قلب طوال مراقبتهم للمكان، على مدار أسابيع. تنزل السيدة والرجل من الأتوبيس ثم يفترقان؛ كل في اتجاهه؛ قد يتوقف الرجل للحظات ليشعل سيجارة قبل أن يعبر الشارع متجهًا نحو منزله. إذا اقتربت منه سيارة سيضيء الكشاف الذي يحمله ليعطي السائق إشارة تنوه عن وجوده وسط الظلام الدامس. حين يصل إلى بيته سيدور حوله دورة كاملة قبل الدخول كما لو أنه يتأكد من تأمينه. ما إن يدخل ستحييه زوجته وابنه الأصغر، ثم تزداد إضاءة لمبات الغاز التي تضيء المكان.

كان رجلًا ذا روتين دقيق لم يتغير طوال مدة مراقبتهم له، ولهذا كان اضطرابهم مضاعفًا من تغير ذلك في هذا اليوم بالتحديد. اتفق الرجال من خلال نظراتهم الصامتة على استمرارهم في مواقعهم. تقوقعوا داخل السيارتين الشيفروليه والبويك السوداوين. سائق السيارة البويك هو الوحيد الذي استمر واقفًا محنيًّا تحت غطاء محركها المفتوح، موحيًا بأنه يحاول إصلاح عطل ما. قرارهم الصامت بعدم إنهاء العملية برغم عدم وصول الهدف في ميعاده المعتاد كان مخالفًا للأعراف المخابراتية التي تدربوا عليها لسنوات. كانوا يعرفون أن في عمليات كهذه، لو خالفت الفريسة روتينها فعلى الصياد أن يعود أدراجه ويبدأ في رسم خطة جديدة ليوم جديد.

علموا يقينًا ألا مكان للعاطفة في مثل هذه المواقف، وأن أي قرار وقوده رغبة، غير التنفيذ المثالي للعملية، يعرضهم لأخطار هم في غنى عنها. تناسوا كل هذا وتغلب ما بداخل كل منهم من رغبة في إنهاء ما جاءوا من أجله، ولو بحزمة مخاطر غير محسوبة.

في الثامنة وخمس دقائق تجددت آمالهم، حين لاحت لهم أضواء حافلة تقترب عن بعد. لم تمر دقائق إلا وكان أتوبيس آخر لنفس الخط يهدئ من سرعته، وتعلو أصوات فرملته بينما يقف عند المحطة على رأس شارع غاريبالدي. مع صوت فتح أبواب المركبة سارع الرجلان مفتولا العضلات بالترجل من السيارة البويك السوداء، واتخذا موقعيهما على الجانب المظلم من الرصيف بجوار السيارة التي استمر سائقها في انشغاله المزعوم بإصلاح العطب، والذي انثنى لأجله تحت غطاء محركها المفتوح.

حين تحرك الأتوبيس، ترك خلفه سيدة ما لبثت أن تحركت يسارًا كالمعتاد، تاركة خلفها رجلًا طويلاً يرتدي نظارة طبية. سيتوقف للحظات قبل أن يبدأ في التحرك ببطء نحو بيته وقد انحنى قليلًا واضعًا يديه في جيبيْ معطفه، لمواجهة الرياح التي بدأت تشتد منذرةً بعاصفة من عواصف بوينس أيرس الخريفية. تتابعت خطواته على خلفية زئير الرعد في الأفق، سبقه برق لحظي اختفى سريعًا وسط السحب المتكاثرة في السماء.

بخطوات منتظمة استمر الرجل يسير إلى بيته. عندما صار بموازاة السيارة البويك رفع الرجل المحني على موتورها رأسه وناداه بالإسبانية:

ـ هل لديك دقيقة يا سيدي؟

وجل الرجل من السؤال الذي فاجأه، وإن بدا بريئًا. تربيته العسكرية هي ما جعلته يدرك أن بالأمر شيئًا مريبا. تجاهل السائل والسؤال مسرعًا خطواته. لم يعطه الرجلان المتدثران بالظلام فرصة الفرار، فقفزا عليه من فورهما وفي لحظة كان أحدهما قد أسقطه أرضًا. سرعان ما انهارت مقاومته تحت وطأة الرجلين اللذين كبلا يديه. ارتمى أحدهما فوقه في حين أمسك الآخر بقدميه، ليكملا السيطرة عليه. في لحظات كان الاثنان يرفعانه من الأرض كالذبيحة ويلقيان به لداخل السيارة. ارتطم جسده بالمقعد الخلفي قبل أن يدحرجاه أسفله. تزامن ذلك مع صوت إغلاق غطاء الموتور. دار الموتور وهو ملقى على أرضية السيارة، وأقدام الرجلين تدوس على جسده فتثبته في مكانه. بألمانية شديدة الوضوح سمع صوتًا يوجه الكلام إليه:

ـ إن تحركت أو أصدرت صوتًا سأطلق النار عليك .

أحس بفوهة مسدس تلامس رأسه قبل أن يسمع الصوت من جديد:

ـ طال انتظارنا لهذه اللحظة.

من مرقده ومن تحت الأقدام أدرك هوية خاطفيه. تسارعت ضربات قلبه وهو يدرك أن سنوات هروبه من أسوأ كوابيسه توشك على النهاية. فكر في الاستغاثة ولكن المسدس الملامس لرأسه أخبره بأن مختطفيه لن يتوانوا في تنفيذ تهديدهم إن قام بذلك. بدأ في تنظيم أنفاسه وأخذ يستكين ويستسلم للموقف.

كان يعلم أن دوافعهم أكبر بكثير من أن يفاوضهم. مر بذهنه شريط بطيء لحياة ظن في لحظات بأنه يعلو قمتها وأنه لا سبيل لإنزاله من أعلى صهوتها. تذكر أيام كانت قراراته ربوبية فيمن يكتب له حياة ومن تنتهي مدة خدمته على الأرض. دمعت عيناه وهو يستعيد أيام هروبه من أرض الآباء ليبدأ حياة بائسة كعامل ماكينات في مصنع بالأرجنتين، ماحيًا آثار حياة العظمة التي انتهت بسقوط الرايخ الثالث في ألمانيا.

بصوت ملؤه الضعف والتوسل وجه كلامه لمن اشتدت دوسة قدميه على جسده:

ـ أعرف من أنتم.

التقط أنفاسه وعاد يقول:

ـ لست من تبغون.

جاءه الرد سريعًا حازمًا:

- اسكت وإلا أطلقت عليك النار!

بوينس أيرس ـ الأرجنتين

20 مايو 1960

أخذ أهاروني خطوة إلى الوراء، ممعنًا النظر في الرجل معصوب العينين والمقيدة يداه، الجالس أمامه. عشرة أيام مرت وهم في البيت الآمن في ضاحية بوينس أيرس الهادئة. بتروٍّ مد يده وأزال العصابة عن عينيْ سجينه فتسارع ارتجاف جفنيه من شدة الضوء الذي غاب عنه طوال فترة أسره.

أمسك أهاروني بعلبة الصبغة بيد، في حين ثبتت يده الأخرى ذقن أيخمان كي لا يتحرك قبل أن يبدأ في رش شعره بصبغة فضية تُضيف له شيبًا. بعد أن انتهى من شعره أمسك بأدوات التنكر وأضاف خطوطًا ثلاثة على جبينه لتتماشى التجاعيد مع الشيبة التي اكتسبها لتوه. خطوة أخرى إلى الخلف أخذها قبل أن يلصق على شفته العليا شاربًا أشيب، لينتهي من التنكر الذي اختاره في ذاك اليوم: يوم المغادرة.

* * *

نظر الكابتن زڤاي توهار لساعته، فوجدها الثانية عشرة ظهرًا إلا خمس دقائق. كان جالسًا في ركن منزوٍ من بهو فندق إنترناسيونال، في انتظار وصول طاقم طائرته في تمام الثانية عشرة. ما لبثوا أن تجمعوا جميعًا ليبدأ القائد كلامه بصوت خفيض:

ـ كما تعلمون، سنغادر بيونس أيرس قرب منتصف الليل.. من الآن وحتى ميعاد المغادرة، لن يبرح أيكم الفندق.. لا جولات

ولا تسوق.. الجميع يلزم غرفه مرتديًا زيه، الحقائب جاهزة للمغادرة في أية لحظة. لا يمكنني إخباركم بأكثر من أننا سننقل معنا شخصية غاية في الأهمية.

* * *

عند مدخل أطقم الطيران في مطار إزيزا الدولي، وقف يوسف كلاين مدير محطة طيران العال في بوينس أيرس يتبادل أطراف حديث بلا معنى مع قائد الحرس. طوال الشهر الفائت، صارت زياراته اليومية إلزامية. في البداية كان السبب هو التحضير لأول هبوط لطائرة إسرائيلية مدنية في بوينس أيرس. أما بعد وصول الطائرة قبل عدة

أيام، فقد تحول السبب إلى التحضير لمغادرتها. ولكن غرض كلاين اليوم كان استثمار الصداقات التي غزلها على مدار الشهر في تسهيل دخول طاقم الطائرة بأقل قدر ممكن من الروتين. أراد أن يكون الأمن في حالة استرخاء وأن يكون الود والمجاملات هو الغالب في استقبال الطاقم، ليدخلوا مباشرة ودون أسئلة حيث ترقد طائرتهم من طراز البريتانيكا.

*** * ***

انتهى أهاروني من إلباس الأسير زي طياري العال: قميصًا أبيض عليه كتافات تشير لكونه طيارًا وبنطالًا أزرق، في حين احتفظ تحت إبطه بالكاب الذي تزينه علامة نجمة داود. نظرة أخيرة لهيئة الأسير تبعها اقتياده خطوة تلو أخرى عبر السلالم للدور الأرضي من البيت الآمن. حين وصلا إلى المطبخ أجلسه على كرسي يتوسط المكان، بجانب منضدة تراصت عليها مجموعة من الحقن والأمبولات، قلق المُختطف حين رآها وناشد أهاروني بصوت خفيض:

ـ لا داعي لحقني.. سأكون هادئًا ولن أقاوم.

لحظات وكان الدكتور كاپلان جالسًا أمامه، وقد أمسك بحقنة وبدأ في ملئها بسائل الأمبولة. كرر الرجل في فزع:

ـ لا داعي لحقني!

تراءى له أنهما يستعدان لقتله، وأن التنكر ليس إلا جزءًا من خطة التخلص من جثته بعد الموت. خبرته في منصبه السابق جعلته دائمًا يخشى الحَقن وما يليه. كم من مرة سمع عمن حُقنوا بيد زملائه السابقين وكيف انتهوا.

نظر إليه كاپلان مطمئنًا:

ـ لا تخشَ شيئًا، هذه مهدئات تساعدك على يومك الطويل.

ثم أشار الطبيب لأهاروني الذي سارع لتقييد حركة الجالس أمامه قبل أن يبدأ الأول في حقنه حقنة تلو الأخرى. لم تمر دقائق حتى صار الأسير في حالة أشبه بالذهول، ثقل معها لسانه فأصبح شبه عاجز عن النطق وإن ظل نصف واعٍ لما حوله وقد زاغت عيناه وتخدلت أطرافه.

*** * ***

في السادسة مساءً، كان أهاروني قد عاد بالسيارة الدبلوماسية من السفارة، وقد ارتدى زي سائق السفير. على مقدمة السيارة كان العلم الإسرائيلي يرفرف منعًا لتوقيفها في لجان التفتيش على طريق المطار. دقائق وخرج أيخمان، يسنده من تحت إبطه رجلان يلبسان زي مضيفي طيران العال. أجلساه داخل السيارة وقفز أحدهما بجواره، وفي الناحية الأخرى جلس الطبيب كاپلان.

بدأ أهاروني الرحلة صوب مطار ازيزا متحاشيًا الطرق الرئيسية. استمرت رحلتهم قرابة نصف الساعة حتى وجدوا أمامهم سيارة الميني باص الخاصة بطاقم الطائرة تنتظرهم قبل مدخل المطار بحوالي كيلومتر. ترجل راكبو السيارة حاملين أسيرهم وهو في حالة نصف الواعي التي أرادها الطبيب. حين ركبوا الميني باص، خيم السكون على ركابه وعم توتر صامت.

لم تمر أكثر من دقيقتين وكان أمن مدخل العاملين يستوقفهم. توجه الجندي المسلح ناحية شباك السائق، ولكن قبل أن يوجه له أي سؤال علا من ورائه صوت يوسف كلاين بالإسبانية:

ـ هؤلاء ضيوفي يا صديقي.. لا تقل أنك تنوي تفتيشهم وإحراجي أمامهم، وأنا من ادعيت أن كل من بمطار بوينس أيرس أصدقائي.

ضحك الجندي الأرجنتيني وهو ينظر لكلاين، وسرعان ما أشار إلى الميني باص للمرور بعد أن أومأ لزميله بفتح البوابة.

التوقف التالي للميني باص كان تحت سلم صعود طائرة العال، الرابضة على مهبط المطار. قبل النزول وجه كابتن توهار تعليماته لطاقمه:

ـ سنحيط بضيفنا في دائرة ونصعد كمجموعة واحدة.. لا التفات إلى الوراء!

بدأ الجمع في الصعود على سلم الطائرة بينما يسند الرجلان نصف الواعي بينهما، أو بالأحرى يجرانه جرًّا درجة تلو الأخرى. عند باب الطائرة علت نظرة اندهاش على وجه جندي الحراسة من مشهد الرجل الذي يسحبانه. مد الكابتن توهار يده وطبطب على كتفه ضاحكًا، وهو يقول بإسبانية ذات لكنة:

ـ لم يستطع مقاومة مذاق نبيذكم الأرجنتيني.

دخل الجميع الطائرة، وقبل أن يدلف هو نفسه لداخلها فوجئ بمن

يناديه من تحت سلم الصعود:

ـ كابتن.. كابتن.

تسارعت ضربات قلبه حين رأى ضابط أمن يناديه. لحظات وكان الضابط واقفًا بجانبه على باب الطائرة:

ـ هناك توقيع ناقص على أوراق المغادرة.

تنفس توهار الصعداء وهو يوقع حيث أشار الضابط.

داخل الطائرة، أجلسوا صيدهم في الصف الثاني من مقاعد الدرجة الأولى، وجلس الطبيب على الناحية الأخرى من الممر. جلست مضيفة بجانب الأسير، بعدما غطته ببطانية وأسندت رأسها على كتفه وأغمضت عينيها، طبقًا لتعليمات قائد الطائرة بأن يتظاهر طاقم الضيافة الإضافي كله بأنهم في سبات عميق.

أُديرت محركات الطائرة وبدأ الكابتن في التحدث في ميكروفون الطائرة، وما لبث أن طالب أطقم الخدمات الأرضية الموجودين على متنها بالمغادرة استعدادًا للإقلاع.

قبيل مغادرته الطائرة، توقف أهاروني عند مقعد الضيف كما أسماه الكابتن ومال عليه هامسًا في أذنه:

ـ إسرائيل كلها في انتظارك يا أيخمان.

برلين ـ ألمانيا

13 أغسطس 1961

بدأ يوم الأحد بدايته المعتادة، بالأنغام العذبة الصادرة من عزف هيلدا على كمانها تزحف من أسفل باب حجرتها المغلق، فينساب في عذوبة في أركان البيت ويترقرق متراقصًا ليصل إلى مسامعي. كم كان كمان مائير متسقًا مع أختي الصغرى، وكم كانا وكأنهما خلقا لبعضهما. منذ أعطاها والدي ما أهداه به اليهودي التصقت به، وفي وسط أهوال الحرب استمرت في شغفها الذي تبناه معلموها في مدرسة برلين للموسيقى، وتنبأوا لها أن تكون إحدى العازفات العظام. لم تخذلهم هيلدا وحققت نبوءتهم، فأصبحت محط أنظار ومطلب كل مايسترو يريد الكمال للأوركسترا التي يقودها. ومع الشهرة التي أصبحت عليها أختي عازفة الكمان، استمرت تحتفظ بكمانها الأثير، كمان مائير، لها وحدها في البيت لا تعزف عليه إلا في غرفتها ولا تشرك جمهورها في سماع دغدغته، لسبب لم تكشف لأحد عنه يومًا.

لم يعطِ القدر متسعًا من الزمن لأبي وأمي كي يفتخرا وهما يشاهدان صغراهما تعزف في أوركسترا برلين الفلهارموني الشهير، أو حين تبوأت قيادة رباعي الوتريات في أوبرا المدينة بعد انتهاء الحرب. مات الجنرال، ومن بعده بأسابيع لحقت به أمي بقدر قرر أن يلطف بأبي بالذات، فجنَّبه أن يشهد انكسار وطنه والدمار الذي لحق به بعد أن تجمعت قوى العالم لإسقاط الرايخ.

كنت وهيلدا قد انتقلنا منذ شهور قليلة للبيت الجديد الذي اشتريناه بعدما بعنا بيت والدنا. لم تعارض هيلدا رغبتي وقدرت خوفي وحاجتي للابتعاد عن كل ما كان ممكنًا ربطه بليليان شميدت. كانت هيلدا على دراية بطبيعة عملي مع أيخمان خلال حقبة الفوهرر، وما قد أكون فيه من مخاطر مرتبطة بذلك، بعد أن أعلنت إسرائيل القبض عليه وبدء التحقيقات معه. كان هذا مكملًا لتجاوبها السابق مع طلبي فور انتهاء الحرب، بأن نسقط لقبنا شميدت، وأن نستعمل اسم عائلة أمنا، وهكذا صرنا ليليان وهيلدا بيكر. كانت تلك الإجراءات نتاج ما تدربت عليه، ولعلها من أواخر الإرشادات التي وزعها الجستابو * على موظفيه قرب النهاية، بعد أن أصبح الانسحاق وشيكًا.

قمت من سريري متكاسلة أخطط ليوم إجازتي من عملي بدويتش بنك. حلقات الاتصال بين الرفاق القدماء لم تنقطع، وبرغم الهزيمة

في الحرب استمر الكثير منهم في مراكز مهمة، بعد أن انقطع الحديث عما كان. حين انتهت الحرب، وبعد فترة التقاط أنفاس ساعدني صديق من دائرة قائدي السابق المقربة في الحصول على عمل بالبنك، كمساعدة لمدير خدمة العملاء، الذي كان بدوره ممن آمنوا وساندوا الفوهرر. «الفوهرر» لم تعد كلمة مستساغة، بل إن موضوع الحرب وما مرت به ألمانيا أصبح كله موضوعًا يتحاشى جيلنا الخوض فيه. أصبحت تلك الفترة وكأنها لم تكن، وازدادت الرغبة في دثرها مع إعادة البناء المعجز الذي كان يشهده الوطن، الذي أصبح يقفز يومًا بعد يوم إلى المكانة التي يستحقها بين الأمم.

يوم الأحد، نفطر أنا وهيلدا معًا، ثم تنطلق هي إلى الجانب الشرقي من المدينة لتلتقي حبيبها سيپ؛ عازف ساكسفون ماهر هو الآخر، وقعت أختي في غرامه هو وآلته الموسيقية. في الظاهر كانا في غاية التناغم، وإن استمررتُ في استغراب كونهما معًا، فهو ثائر مثل البركان باستمرار، لا يمل ولا يكل من دفع الحمم من فوهته. انتقل برغبته إلى ألمانيا الشرقية من شدة إيمانه بالشيوعية ومآثرها، ورفض مرارًا وتكرارًا توسلات هيلدا أن ينتقل للعيش معنا. تحاول أن تقنعه بأنه سيكون أكثر حرية بانتقاله:

ـ في الغرب يمكنك أن تستمر شيوعيًّا.

فيسارع برده:

ـ في الغرب، الشيوعية جزء من مسرحية إثبات قدرتهم على تقبل الآخر.. الرأسمالية مبنية على الاستغلال، على أن تظل الأغلبية دون غلبة.. الشيوعيون في الغرب مثل الوردة الحمراء الندية في چاكيت الأغنياء.

عينا سيپ تضيئان وتشعان طاقة حين يبدأ الكلام عما ينتظر ألمانيا الشرقية من عظمة، وكم سينبهر العالم بما تستطيع تحقيقه. كان على قناعة تامة بأن المستقبل مبهر، وأن ألمانيا العظمى ستعود على يد أبنائها من الشرق، وأنهم سيصبحون نموذجًا محتذى ومثلاً يعلم العالم العدالة، ويصل لما تصوره توماس مور في مدينته الفاضلة، فيسارع بالاقتباس منه:

«لا أرى كيف يمكن أن نصل إلى عدالة وازدهار حقيقي، طالما استمرت الملكية الفردية واستمر معها الحكم على كل شيء من منظور مالي، ما لم نقبل أن الأسوأ من الناس هم من يعيشون في أفضل الظروف، ونكون مستعدين لأن نصف وطنًا بأنه مزدهر

ومنتعش، وكل ثرواته مملوكة لقلة ضئيلة ليست في سعادة كاملة وباقي أهل الوطن تعساء».

ونحن نتناول فطورنا انقطعت فجأة الموسيقى الآتية من الراديو ليعلن المذيع:

- هنا راديو برلين الحرة؛ منذ صباح اليوم الباكر بدأت قوات شرطة برلين الشرقية، بالاشتراك مع أفراد من قوات العمليات الخاصة، في مد وإقامة أسوار من الأسلاك الشائكة ما بين القطاعين الشرقي والغربي للمدينة. وقد قامت حكومة ألمانيا الشرقية من جانبها بغلق 69 من 81 معبر مرور ما بين القطاعين. وقد أعلنت برلين الشرقية أن سكانها ومواطني ألمانيا الشرقية لم يعد بإمكانهم العبور إلى برلين الغربية، إلا بتصاريح خاصة...

تركت هيلدا طعامها الذي كانت على وشك التهامه، واتجهت مسرعة إلى غرفتها. أخذت أقلب في محطات الراديو محاولة الوصول لتفاصيل أكثر تُفسر ما سمعناه، فوجدت أن الرسالة تكاد تكون موحدة على جميع الموجات.

الخلاصة أن مدينة واحدة أهلها موزعون بين شرقها وغربها، قد أصبحت منقسمة رسميًّا. هكذا ببساطة وبهدوء القتلة قرر زعيم أو مجموعة منهم أن الأب يحتاج لتصريح كي يزور ابنه على بعد شارعين من بيته؛ وأن الأم قد لا ترى حفيدها إن كانت ابنتها ستلد غربًا في حين تعيش هي شرقًا.

تذكرت قول أبي المفضل، بأن البشرية معذبة بزعمائها وشطحاتهم؛ يجرون بالشعوب يمينًا أو يسارًا، أو ينزلقون بهم لدروك سفلى لتحقيق ذاتياتهم، ولإشباع عواطف شبوا عليها حبًّا أو كرهًا. لو كان بيننا اليوم لأشار لهذا التزيد في الجنون، الذي أيقظ مدينة على مفاجأة تحوُّلها لمدينتين، يفصلهما حائط غير قابل للاختراق.

عادت هيلدا إلى صالة المنزل، وقد ارتدت ثيابها وحملت حقيبة سفر في يدها. على الفور أدركت ما هي بصدده.

ـ هل جننتِ؟!

ـ يجب أن أذهب إلى سيپ.. بعد ما حدث لن يتمكن من الحضور.

نقاط حياتي السوداء تزداد واحدة، وأنا كالمعتاد عاجزة عن وقف ما يجري. ألمانيا تسقط سقوطًا مدويًا، وأبي يموت محسورًا، وأمي

تفارقني وهي تلومني على مساهمتي فيما مررنا به، وظهيري المتبقي الآن تحزم حقائبها وعلى وشك مغادرتي.

ـ ستتركينني وحدي؟

ـ لا أستطيع أن أقول لكِ تعالي معي، فأنا أعلم كيف تشعرين حيالهم.. ولكن دعينا نتمنى أن تتيسر الأمور وأن يلتم شملنا قريبًا من جديد.

ـ تتركين كل ما تلاقينه من احتفاء، وكل ما أمضيتِ حياتكِ تعشقين من أجل رجل.

ـ الموسيقى لن تتوقف لا في زمان ولا مكان.. سأظل أعزف.. اسمعي يا ليليان، أظن أن ما يقومون به من جنون ليس إلا مناورة سياسية جديدة.. ورقة تفاوض سيحصلون بها على مكاسبٍ ثم تعود الأمور لما كانت عليه.. هذا ما يحترفه الساسة: يبدأون أفعالًا يعرف الجميع أنها ضرب من الجنون، ثم ما يلبثون أن يعودوا عنها بعد لمّ غلة انتصارهم.

ـ وكثيرًا ما يستمرون في عنَتهم وجنونهم؛ ماذا أنتِ فاعلة حينئذ؟

كنت أحاول التشبث بها قدر ما أمكنني، وإن عرفت في قرارة نفسي أن سمة هدوئها توءمها عنادٌ لا نهائي، وأنها متى عقدت العزم على شيء فلا رجعة لها عنه. قتلَت ما تبقى لدي من أمل حين تمتمَت:

ـ أنا حامل يا ليليان.

(*) **(*) الشرطة السرية الألمانية، أُنهيت خدماتها 1945.**

برلين الغربية ـ ألمانيا الغربية

10 يونيو 1962

انتهيت من فطوري وبدأت أستعد لأحد رتيب أصبح معتادًا منذ مغادرة هيلدا البيت. لم يكن هناك اتصال ما بيننا، فقط رسالة مقتضبة تخبرني فيها أنني أصبحت خالة لطفلة تشبهني كثيرًا، سموها جريتا. لم تسهب هيلدا في رسالتها، وفاح مما كتبت رائحة الضيق، وإن لم تفصح عن أي تفاصيل سوى أنها وسيپ قد تزوجا وأنها اضطرت لاستخدام اسم العائلة الأصلي -شميدت- كما هو مذكور في شهادة الميلاد التي وجدوها في سجلات الحكومة في الشرق، إذ إنهم رفضوا استخدام هويتها الغربية. كنت أتابع على مضض ما تكتبه الصحافة عن المفاوضات الدائرة من أجل السماح لسكان الغرب بزيارة برلين الشرقية. بعد أن انتهيت من تنظيف البيت، أمسكت بعدد دير شبيجل الأسبوعي أتصفحه.

«القاتل المكتبي»

كان هذا عنوان مقال العدد الرئيسي، الذي لم يكن بطله سوى أدولف أيخمان:

«هل أنت أدولف أيخمان ابن أدولف كارل أيخمان؟».

كان هذا أول سؤال يوجهه القاضي المترئس للمحكمة، التي كانت على وشك البدء في بيت حاييم، أو بيت الشعب بالقدس الغربية.

رد عليه القابع خلف الزجاج المضاد للرصاص:

ـ نعم.. أنا أدولف أيخمان.

بدأ المدعي العام في قراءة قائمة الاتهامات:

- خلال الفترة الممتدة من 1939 إلى 1945، قام المتهم مع آخرين بارتكاب جرائم ضد اليهود تسببت في مقتل ملايين من الشعب اليهودي. كان هذا من خلال تفعيل خطة النازيين للقضاء على اليهود، وهي الخطة المعنونة: (الحل النهائي للموضوع اليهودي).

كانت مقلتا أيخمان على ثباتهما وهو يستمع عبر سماعات على أذنه ترجمة ألمانية لما يقال.

استمر الادعاء قرابة الساعة في قراءة صحيفة الدعوى، التي شملت خمسة عشر اتهاما:

- قام المتهم بتجميع وتحريك أعداد لا حصر لها من الضحايا، وقام بحصارهم في مناطق محدد بها إقامتهم، كما قام بإرسالهم إلى حتفهم في معسكرات النازي. وقام بدور مباشر وبالتواطؤ بالقتل الجماعي في معسكرات «أوشڤيتز وداشاو وماچدانيك ولوبلن وراڤينزبروك وساشسنهاوزن» وغيرها. كما استعبد اليهود في معسكرات العمل القسري، وحرمهم من حقوقهم كبشر ومن خلال ذلك تسبب في معاناتهم وتعذيبهم. كما أنه استحوذ ومن معه بدون وجه حق على أملاك وثروات هؤلاء الذين أمر بتجميعهم والقبض عليهم من اليهود. وقد امتدت يده الآثمة لتطول اليهود عبر أوروبا والاتحاد السوفيتي ودول البلطيق ليتوانيا وإيستونيا ولاتفيا، وذلك دائمًا وأبدًا بنيّة تدمير الشعب اليهودي.

حين انتهى المدعي من قرار الاتهام سأل القاضي أيخمان:

ـ ما قولك في الاتهامات الموجهة إليك؟

ـ بما تعنيه صياغة قرار الاتهام أنفي قيامي بأي من هذا.

اختار كاتب المقال أن يبدأ هذه البداية السينمائية المثيرة لمقاله عن عام من محاكمة مديري السابق. هدف إسرائيل وعلى رأسها بن جوريون كان كما ادعوا فضح جرائم النازي ضد اليهود، واختاروا أن يقوموا بذلك عن طريق محاكمة رجل واحد وحيد. أرادوا أن يعيدوا إلى السطح ما حاولت ألمانيا بقيادة اديناور أن ترميه خلفها وتدفنه

بلا رجعة، وتعاطف معهم الكثيرون من أمثال كاتب تقرير دير شبيجل هذا. على مدار شهرين أصبح العالم يتابع عن كثب تلك المحاكمة، وما تكشفه من مزاعم الجرائم الوحشية التي قام بها بشر ضد بشر مثلهم. في ضوء عدم تحصلهم على متهمين آخرين، ألصق الإسرائيليون كل تهم النازية بمن كان تحت أيديهم. في وسط هذا الفوران الإعلامي، عادت النازية وجرائمها لتؤرق من جديد ضمائر الألمان، بعدما كانوا قد نجحوا في المضي قدمًا متصورين أنهم أغلقوا ملفًّا بشعًا وملوثًا من تاريخهم المعاصر.

«احتفظ أيخمان بهدوئه طوال المحاكمة. حين كان يجلس على المكتب

خلف قفصه الزجاجي، كان يقوم بتنظيفه فور جلوسه ثم يرتب بدقة أوراقه وكأنه على وشك بداية يوم جديد في عمله». تذكرت كم كان يمعن في تنظيم مكتبه.

«اختار دائمًا أن يوجه نظره إلى المدعي العام الجالس أمامه، ولم ينبس وجهه بأي رد فعل عما كان يقال عنه مهما حمل المستند من اتهامات، أو جاشت عواطف الشهود الذين أتوا بهم ليعطوا تفاصيل معاناتهم في معسكرات النازي.

حين أعطي الفرصة للرد على الاتهامات، وقف بثبات شديد ولم يتردد أو يتلعثم وبهدوء استفز الحاضرين قال:

ـ من وجهة نظر الإحساس الإنساني بالذنب، وهو سؤال لا بد لي أن أقيمه بمنتهى الدقة والجدية، لأن في هذه الحالة لا بد لي أن أحاكم نفسي؛ من هذا المنطلق لا بد أن أعترف بأنني لعبت دورًا، ولكنه كان دورًا تنفيذيًّا لأوامر قياداتي.

أما من الناحية القانونية كمستقبل لتلك الأوامر، لم يكن لي خيار سوى تنفيذها.

حقيقي أنني قمت بالأمر بإجراء ترحيلات اليهود وأن هذه الترحيلات في النهاية تسببت في فنائهم، ولكن يكون الطرح القانوني هنا، من وجهة نظري، معلقًا حتى يُرد على تساؤل من يتحمل المسئولية النهائية».

لم تفاجئني ردود أيخمان التي أوردها المقال، فهو كما عهدته ثابت لا يهتز بسهولة. كنت واثقة أنه سيواجه الضغوط بجلد ولن يهزه كونه وحيدًا يواجه مناخًا منحازًا وعدالة بالتأكيد منتقصة. ولكن هذا هو الرجل الذي خدمت معه سنوات وتعلمت منه الاعتزاز بالعمل وتنفيذ التعليمات دونما نقاش.

«في 15 ديسمبر 1961 أمر القاضي أيخمان بالوقوف، ووجه إليه حديثه قارئًا من الأوراق التي أمامه:

- لكل قطار يحمل ألف إنسان، أمر المتهم بإرسالهم إلى أوشڤيتز أو أي معسكر مماثل، فقد عنى ذلك أن المتهم متواطئ ومشارك مباشرة في ألف جريمة قتل مع سبق الإصرار.. حتى لو كان المتهم يعمل طاعة عمياء كما يدعي؛ فقد رأينا أن من شارك في مثل هذه الجرائم الشنعاء عبر سنين متتالية لا بد أن يعاقب بأقصى ما ينص عليه القانون.. ولكننا وجدنا أن المتهم قد قام بأفعاله تلك بقبول تام،

وتناغم داخلي مع الأوامر التي يريد أن يصور أنه كان فقط منفذًا لها ودون إجبار.. وبناء على ما سبق تحكم المحكمة على أدولف أيخمان بالإعدام شنقًا».

حين قرأت منطوق الحكم عليه أصابني جزع. لم أفزع لأنهم أعدموه فقد عرفت ألمانيا كلها الخبر عند حدوثه، وحزنت وقتها على فراق رجل جاورته كأحد موظفيه البسطاء الذين يتولون أعماله المكتبية. ما أرقني من مصيره أن أوصم بأنني شاركت، ولو عن دون عمد، في جرائمه. سرحت لحظات متصورة أنه ذكر اسمي في التحقيقات ثم ما لبثت أن استبعدت الفكرة من ذهني إذ لم أكن غير المنوط بها تنظيم ملفاته في أدراجها وتنظيم مواعيده.

عدت أكمل الجزء الأخير من التحقيق المنشور الذي أراد فيه الصحفي أن يستعرض عضلاته الاستقصائية وقدراته على السرد فجعل من هذا الجزء مشهدًا مسرحيًّا مفصلًا:

«قبل عشرة أيام دخل مأمور سجن الرملة بإسرائيل زنزانة أيخمان في حوالي السابعة مساءً، وأخبره باقتضاب أن طلبه للرأفة من رئيس إسرائيل قوبِل بالرفض، كما سبق أن رُفض استئنافه للحكم. قبل أن يخرج من الزنزانة التفت إليه، وبنظرة مشمئزة اعتادها أيخمان قال له:

ـ التنفيذ عند منتصف الليلة.

طلب أيخمان زجاجة نبيذ ابتلع نصفها ودخن معها عشر سجائر وهو يكتب خطابًا أخيرًا لزوجته وأولاده. بعد ذلك قام فحلق ذقنه وغسل أسنانه قبل أن يلبس بنطالًا بنيًّا وقميصًا أبيض.

قبل الميعاد بأقل من ساعة، دخل إليه قسيس فوجده في حالة هدوء استغربها.

عاجله أيخمان:

ـ لِمَ أنت حزين؟ أنا لست بحزين.. لدي سلام في قلبي.. أنا نفسي مذهول من حالة السلام التي أمر بها.. الموت ما هو إلا تحرير للروح.

حين سمع صوت أقدام الحراس قادمين، انتفض واقفًا:

ـ أنا جاهز.

خمسون خطوة أو أكثر قليلًا، مشاها ببطء خلف الجنود قبل أن يصل إلى الحجرة التي أعدت له. في وسطها تدلى حبل فوق طبلية من خشب ينتصفها باب. أوقفه الجنود فوق الطبلية الخشبية وأوثقوا قدميه، وظلت يداه مكبلتين خلفه. رفض الغطاء الأبيض الذي أتوا به وحاولوا وضعه على رأسه. وجّه نظرته الثاقبة إلى أيتان وزير دفاع إسرائيل المتواجد ضمن الحاضرين وبادره:

ـ أتمنى أن يكون دورك القادم.

ما أن لفوا حبل المشنقة حول عنقه هتف:

ـ تحيا ألمانيا.. تحيا الأرجنتين.. تحيا النمسا.. كان علي إطاعة قوانين الحرب وعلم بلادي.. أنا جاهز.

ثم بهدوء وجه كلامه للواقفين:

ـ سنلتقي مرة أخرى قريبًا يا سادة فهذا قدر الرجال.. لقد آمنت بالله طوال حياتي وهأنذا أموت مؤمنًا بالله».

في هذا اليوم بكيت قائدي الذي عرفته عن قرب؛ بكيت شجاعته وبكيت ألمانيته، وبكيت حلم عظمة وطن اختار القدر ألا يكون. ولكن شجني هذا لم يكن شعورًا عامًّا في بلدي، إذ أصبح أيخمان وقصته وخزًا لضمير أمة، وإمعانًا في شعور شعب بذنب اقترفه آباؤهم. ذنب وجرح سيستمر العالم بتذكيرهم به، عبر إعلام يعشق الإثارة.

برلين الغربية والشرقية ـ ألمانيا الغربية والشرقية

21 ديسمبر 1963

كانت ضربات قلبي تتلاحق بينما أعد الحقيبة الصغيرة التي سأحملها. ملأتها بلعب صغيرة من أجل جريتا، التي سأراها لأول مرة اليوم، بعد أن نجحت حكومة ألمانيا الغربية في إقناع نظيرتها الشرقية بأن تسمح لمن لهم عائلات وأقارب في الشرق بزيارتهم بمناسبة أعياد الميلاد. أكثر من عامين مرا ولم أرَ أختي، ولا ابنتها التي ولدت على بعد مسافة قليلة وفي نفس المدينة، ولكن سورًا ضخمًا منعني من التمتع بها. طوال هذه الفترة، استطاعت هيلدا أن ترسل لي رسالتين، أو ربما ثلاثا، من أسطر قليلة موجزها أنها بخير وأن جريتا تزداد جمالًا يومًا بعد يوم. وفي المقابل كنت أكتب لها كل أسبوع تقريبًا، مع علمي بأن خطاباتي في الأغلب لن تصلها، في ضوء ما تواتر عن حجب حكومة برلين الشرقية لأي اتصال مع سكانها من جهة الغرب.

بعد أن عبرت نقطة التفتيش، شعرت برجفة خفيفة وأنا أخطو الخطوة تلو الأخرى جهة النقطة الشرقية. عن بعد وقف جنديان مدججان بالسلاح، ازدادت صرامة وجهيهما وهما في انتظار وصولي. أخرجت أوراق وتصاريح الزيارة وراجعتها وأنا أمشي نحوهما. حين وصلت إليهما تفحصا أوراقي، ثم أشارا إليّ لأدخل غرفة مغلقة. حين دخلت، وجدت رجلين وامرأة، بدأت الأخيرة في تفتيشي ذاتيًّا في الوقت الذي قام فيه الرجلان بفتح حقيبتي وأخرجا كل ما فيها ووضعاه على منضدة توسطت الغرفة الصغيرة.

ـ هذه لعب وهدايا لابنة أختي التي لم أرَها منذ وُلدت.

لم يردّا عليّ، كنت مستعدة بالنصائح التي تلقيتها من زملائي في العمل عما يجب أن أتوقع أثناء عبوري. بهدوء أومأت نحو خرطوشة سجائر مارلبورو حملتها في الحقيبة. وبهدوء وبرود أكبر أخذاها وهما يشيران لي أن أضع حاجياتي التي على المنضدة في حقيبتي وأنصرف.

أمضيت حوالي ثلاثين دقيقة وأنا في طريقي إلى عنوان هيلدا. حين وصلت وجدت نفسي أمام بناية ضخمة بهتت ألوانها الأصلية، فبدت على نفس درجة حزن المدينة التي تحتضنها. دخلت من المدخل

الخاوي ومنه إلى السلم الذي لم يتناسب ضيقه مع ضخامة المبنى، وبدأت في الصعود إلى الدور الثاني. توقفت أمام باب شقتها وقرعت جرس الباب. لم يأت من الداخل أي رد، ضغطتُ على الجرس من جديد مرة وثانية وثالثة. أدركت ألا أحد بالمنزل، فغمرني اليأس

ولم أجد سوى أن أجلس مسندة ظهري على الباب، الذي بدا متهالكًا بعض الشيء في انتظار عودتهم. مرت ساعات طويلة وأنا منتظرة، حتى إنني رحت في غفوة طويلة وأنا على ذات الوضع. السكون كان مخيمًا على العمارة كلها وكأنها مهجورة.. أبواب الطرقات موصدة ولا حركة لأناس سواء دخولًا أو خروجًا.

أخيرًا سمعت خطوات تصعد السلم، فالتفت لأجد رجلًا وامرأة متجهين نحوي. استمرا في تقدمهما حتى أصبحا بمحاذاتي وتوقفا على بعد بابين من شقة هيلدا وهما يرمقانني بحذر. قمت من فوري وتوجهت إليهما متسائلة:

ـ أنا أخت هيلدا جارتكم؛ هل تعرفانها وابنتها جريتا وزوجها سيب؟

سارعا بفتح بابهما ودلفا لداخل شقتهما. أظن الرجل غمغم بشيء من الفزع قبل أن يغلق الباب:

ـ لا نعرف عمن تتكلمين.

لم يكن بإمكاني الانتظار أكثر من ذلك، إذ إن تصريحي كان على وشك الانتهاء، فاضطررت للبدء في رحلة العودة. تملكتني الهواجس من كثرة ما سمعت عن الاختفاءات المفاجئة التي تحدث في شرق بلادي. هيلدا لم تكن لتغير عنوانها دون إخطاري، وبرغم صعوبة التراسل فيما بيننا كانت ستجد طريقة لإبلاغي. ثم إنها في آخر رسالة وبعد أن أعلنوا عن السماح بزيارات الكريسماس، أكدت أنها ستكون بانتظاري في الموعد الذي ذهبت فيه. مع كل خطوة في طريقي إلى البيت، ازداد قلقي وامتلأ قلبي شكًّا فيما يكون قد أصابهم.

غيرت وجهتي وسرعان ما وصلت لقسم الشرطة المجاور لبيتي، وطلبت مقابلة ضابط مختص بقضايا الاختفاء دون أن أفصح لموظف الاستقبال عن تفاصيل البلاغ.

ـ سبستيان واجنر في خدمتك يا سيدتي.

هكذا قدم لي نفسه وهو يقودني لإحدى الغرف المغلقة ليستمع إلى البلاغ الذي أردت تقديمه.

ـ لا أدري إن كنتم تستطيعون معاونتي، ولكن أختي وهي ألمانية غربية الهوية اختفت من محل إقامتها في برلين الشرقية.

وجم السيد واجنر وبدا أنه يحاول أن يفتِّش في ذهنه عما يجيب به.

ـ شرطتنا ليست محل اختصاص في مثل هذه الأمور، لكن ما سأفعله أنني سآخذ بلاغكِ وأحوله إلى مكتب اتصال ألمانيا الشرقية بإدارة الخارجية ليتعاملوا معه.. هذا أقصى ما أستطيع عمله.

بدأ في أخذ أقوالي:

ـ ما اسم أختك؟

ـ هيلدا بيكر.

ثم تذكرت فعدت أصحح ما قلت:

ـ هيلدا شميدت.

حين انتهى من أسئلته أخبرني أن المذكرة ستكون في الإدارة المختصة بدءًا من يوم الاثنين، وأنه يجب عليّ متابعتها مع المسئولين هناك.

* * *

على بُعد شارع أو شارعين من قسم الشرطة الذي زارته ليليان جلس شيمون ڤايتسمان على مكتبه الصغير في ركن الغرفة التي يقطنها يتفحص ملفًّا مليئًا بأوراق شديدة الاصفرار، ترصدت بها أفعال الزمان. الضغط زاد بشدة بعد محاكمة وإعدام أيخمان، إذ وجب عليه انتهاز الزخم الذي تسببت فيه المحاكمة وعودة قضية الهولوكوست إلى بؤرة الضوء. أصبح الهدف هو اصطياد وتقديم أكبر عدد ممكن من النازيين ومعاونيهم إلى العدالة. ڤايتسمان وعدد لا يتعدى أصابع اليد الواحدة كانوا ممن صاروا معروفين بصائدي النازيين.

قطع تركيزه فيما يقرأ طرق على الباب، فقام ليفتحه ليجد أمامه صديقه الشرطي واجنر. استغرب أن يزوره في مثل هذه الساعة المتأخرة.

ـ لم أكن لأزعجك إلا لأن لدي خبرًا أظنك تتوق إليه.

دعاه للدخول وأحضر زجاجتين من البيرة وجلسا متقابلين على المكتب الصغير المزدحم بالملفات، قبل أن يسأله:

ـ ما هو الخبر الذي جعلني أسعد بهذه الزيارة؟

ـ أظنني عثرت على إحدى فريساتك.

اعتدل ڤايتسمان في مقعده على الفور.

ـ ذكرت لي مرة اسم شميدت.. هيلدا شميدت على ما أظن.. أستطيع أن أقول لك أنها موجودة في برلين الشرقية، أو على الأقل كانت موجودة هناك.

قلّب ڤايتسمان ملفاته، وسحب من أحدها قائمة من عدة صفحات بدأ في الانتقال بين أسطرها، قبل أن يرفع وجهه إلى واجنر ويقول:

ـ من أبحث عنها ليست هيلدا.. المطلوبة اسمها ليليان شميدت.

برلين الشرقية ـ ألمانيا الشرقية

18 ديسمبر 1963

انتهت تدريبات الأوركسترا كالعادة في تمام الثالثة مساء، فسارعت هيلدا بإدخال كمانها وقوسها إلى الحقيبة. كالعادة كانت التدريبات على مزيد من موسيقى يوهان باخ، فخر الحكومة الألمانية الشرقية بحكم مولده هناك، وقد غضوا النظر عن كونه وُلد ومات قبل أن تكون هناك ألمانياتان وافترضوا أنه كان ليصبح مواطنًا من مواطنيهم الشرفاء. قبل أن تغلق حقيبتها أمعنت النظر لآلتها الموسيقية، وإن ذهب بها ذهنها إلى كمانها المفضل الذي تركته في بيتها ذلك اليوم حين كانت من القليلين الذين عبروا عكس الاتجاه الذي تتمناه الأغلبية: من الغرب إلى الشرق.

حملت الكمان الذي اشتراه لها سيپ، وأسرعت الخطى تجاه حضانة جريتا. ما إن توقفت عند سور الحضانة حتى لمحت صغيرتها تلعب وسط أقرانها. سارعت نحو ابنتها تريد أن تفاجئها واحتضنتها من الخلف، لتنبعث رائحة شعر جريتا المحببة إلى أنف هيلدا، التفتت الطفلة وضمت هيلدا بقوة لينقبض قلب هيلدا وهي تكتشف أن الطفلة التي سارعت لضمها ليست طفلتها. غص قلبها ولم تكن تعرف أيهما أسوأ، أن وصل تشابه ملابس الأطفال والصابون الذي يستخدمه الجميع إلى الحد الذي تخطئ فيه تمييز وحيدتها، أم أن طفلة بعمر ابنتها تشتهي عناق امرأة غريبة لهذا الحد! أين أمها يا ترى؟

تزاحمت الأفكار والمخاوف في رأسها وهي تربت على رأس الطفلة التي اكتفت من العناق حين وثبت جريتا على أمها فرحة، قلبت هيلدا نظرها بين الطفلتين وألح عليها السؤال مجددًا، هل هذا أفضل ما يمكن أن تقدمه لابنتها؟ أي أم تحرم طفلتها من فرص حياة أفضل في الناحية الغربية من البلدة؟

منذ زواجها بسيپ، أو بالأحرى منذ وصلت طفلتهما إلى الدنيا وهيلدا تناور مرة تلو أخرى في محاولات لا تكل منها لإقناعه بالعبور نحو الغرب.

ـ أهرب كالفئران! أترك معتقداتي خلفي وأذهب بنفسي لكل ما ناضلت ضده طوال حياتي.. أترضين لي بذلك! ثم ما السيئ في ما نحن فيه؟ ماذا ينقصنا؟

كانت تؤثر ألا تبدأ في عد ما ينقصهم، أو سوء حال ما يصلهم، لمعرفتها السابقة برده المعتاد:

ـ نحن في مرحلة بناء وأنتِ تعلمين جيدًا كيف تحاربنا الرأسمالية لتحط منا.. معركتنا مزدوجة؛ يد تبني وأخرى تصد الأعداء.

لكنها لم تيأس من إقناعه بحكم معرفتها بعشقه عشق المتصوف لها هي وجريتا. رأت أنها فقط مسألة وقت حتى يرى الأفضل لهما، وعندها ستسقط حصون معارضته. قلقها الوحيد أن تشح فرص العبور، خاصة بالنسبة إليه؛ فلن تكون هناك مشاكل لها ولطفلتهما بحكم هويتها الألمانية الغربية التي احتفظت بها، أما هو فلا بد من حيلة لتهريبه.

كانت تعلم أنه ومثله تمامًا أختها يؤمنان بمعتقداتهما حتى الثمالة.تعلم تمامًا أنهما -كل بمنهاجه- يريدان الأفضل لمجتمعيهما. وفي سبيل تحقيق رؤاهما، المتباينة في المنهج، كانا على استعداد لغفران ما قد يراه سائر العالم من تجاوزات. كانت تعتقد أنها مرسلة لهما هما الاثنين بحكم الحب الذي تكنه لكليهما، كي تهدئ من شطط أيديولوجياتهما المتطاحنة.

على مقهاه المفضل جلس سيب وصديقاه يحتسون البيرة ويتبادلون الحديث. بالأحرى كان هو يتحدث والآخران يستمعان، وقد يجدان شجاعة لحظية من آن لآخر فيومئ أحدهما موافقًا أو ينبس الآخر بكلمة تشجعه على الاستمرار في حديثه. كعادته، كانت عروق رقبته منتفضة ووجهه مملوءًا بحمرة وحماس، وهو يتكلم عن لين النظام وعدم «شيوعيته» الكافية من منظوره.

ـ أترون الخطة الاقتصادية التي أعلن عنها البريخت سكرتير الحزب؟ هل المعقول اتجاهه لإضعاف الحكومة المركزية؟! هل يعقل أن يزيد من سلطات الشركات بهذه الطريقة؟!

يزداد تحديق الرجلين نحوه، فيفهم سبب قلقهما فيخفض صوته:

ـ ثم ما هذه التبعية العمياء لموسكو؟ ألا يدرك أننا طوال التاريخ نتقدم الصفوف؟

ثم يضيف مبتسمًا حكمته الأثيرة:

ـ البريخت يتناسى دائمًا أن كارل ماركس ألماني! نحن من بدعنا الشيوعية لا الروس.

حين ازداد تململ صديقيه أراد سيپ أن يقلل من حدة توترهما، فهمس إليهما:

ـ إليكما آخر نكتة: فقد سكرتير الحزب ساعته الذهبية الثمينة، فسارع بإبلاغ الشرطة.. لم تمضِ دقائق حتى وجدها تحت وسادته، فعاود الاتصال بالشرطة يريد سحب البلاغ، فأبلغوه أنه تأخر في ذلك إذ إنهم قبضوا على ثلاثة أفراد أدلى كل منهم باعتراف كامل.

لم يدر سيپ لمَ لم يقهقها معه، وإن بدا أن أحدهما يواري ضحكة كادت تتسلل من فمه، والآخر تجمدت ملامح وجهه تمامًا. كانت النكتة نقطة الختام للقائهم، وفارقه صديقاه على صمتهما.

بعد أن تناولا العشاء، انشغلت هيلدا مع جريتا تعدها للنوم، في حين جلس زوجها يقرأ إحدى المجلات. بعد أن خلدت الطفلة للنوم سارعت أمها إلى الحمام تستمتع بدش دافئ كانت قد منت نفسها به منذ الصباح. حين انتهت كانت في حالة مزاجية عالية تدندن وهي تمشط شعرها الذهبي، وتطيل النظر في المرآة وهي تتفحص جسدها الممشوق الذي عاد لحاله بعدما انحسرت عنه آثار الحمل والولادة. أنوثتها البادية أججت رغبتها فيما سيجعل الليلة مكتملة، فأخرجت كمانها من حقيبته، وبدأت في الربت عليه بخفة قبل أن ترفعه تحت ذقنها وتسنده على كتفها وتبدأ في عزف رقيق.

المعزوفة التي اختارتها كانت لألبرت بوش، تعلم تمامًا إلى أين ستؤدي، فهي أحد الدويتوهات الشهيرة التي يتمازج فيها كمانها مع ساكسفون سيپ. ما زالت تداعب أوتار الكمان بقوسها حين علت من خلفها أنغام ساكسفون حبيبها، وهو يلبي نداء الرغبة التي بها. استمر عزفهما متناغمًا يتماس مع حدود الكمال، حتى وصلا لما قبل الربع الأخير من معزوفتهما الأثيرة. بحرفية عازف الساكسفون المتمرس حرر سيپ إحدى يديه ولفها حول خصر هيلدا من خلفها يضمها إليه. بدأت تتمايل معه في غنج لتشعل جسده بالرغبة وتبدأ هي تحس بشغفه يشتعل من خلفها. ضمها سيپ إليه بقوة فنبست بآهة خافتة تتلهف للمزيد. توقفت عن العزف واستدارت نحوه، فأخذ الكمان من يدها ووضعه برفق على طاولة جانبية، ثم أمسك وجهها بين يديه يتأمله ويتملى في شفتيها الناضحتين بالرغبة.. لكنه لم يمنحها سوى قبلة رقيقة على شفتها السفلى، ثم هبط بفمه إلى عنقها العاجي فأمطره بفيضان من القبل الرطبة التي أذابت جسدها بين ذراعيه المفتولتين.

كامتزاج الحروف الموسيقية في السيمفونية تعانقا، وتوالت قبلاتهما،

يعلنان من خلالها استيطان العشق قلبيهما.ضمته هيلدا إليها وازداد استمتاعها بأنفاسه اللاهثة بينما تبادله حبًّا بحب مؤججًا برغبة مشتعلة. أن ترغب المرأة ويشعر الرجل بهذه الرغبة يحلق بالحميمية إلى آفاق لا وصف لها. تجاوب سيپ مع الرغبة التي أشاعها جسدها وتجاوبت كل خلاياها مع فرك أصابعه الذي أصغى لنداء متى يضغط ومتى يربت، فتتماوج هيلدا وتتعالى آهاتها مع كل لمسة. غدا شبقهما مقطوعة موسيقية تحول فيها جسداهما إلى كمان وساكسفون، بل إلى أوركسترا كاملة تداعب أنامل كل منهما مفاتيح الآخر، فيئنّان معًا ليصدرا موسيقاهما المتفردة. كالسيمفونية قبل نهايتها هدأ إيقاعهما واندمجا كل يستمتع بعزف الآخر الانفرادي. حين أشرفا على النهاية علت الأنفاس وسادت مقدمات الترقب الأجواء، قبل أن يلج الساكسفون كمانه. بعد أن أصبحا كتلة واحدة، امتزجت أصوات تحقق الرغبة مع آهات إعجاب لإبداع دويتو شديد الخصوصية.

عاجلهما الضجيج الزاعق المنبعث ممن يطرقون باب شقتهما بعنف شديد الوطأة. انتفضا من على السرير وأسرعا يغطيان عريهما بما وصلت إليه أيديهما، ولم يصلا إلى باب الغرفة حتى وجدا نفسيهما محاصرين بداخلها برجال امتلأت أعينهم صرامة وشررًا.

ـ نحن من الستازي.. هيا معنا.

اقتادوا سيپ وكبلوا هيلدا وهم يجرجرونها، ولمحت في التفاتتها أحدهم يحمل جريتا، التي علا صراخها من هول انتزاعها من سريرها أثناء النوم. حاولت في يأس أن تفلت من قبضتهم وتصل لابنتها فازدادت غلظة من قيدوها وسحبوها على الدرج دون أن يبالوا بعويلها. وهم يجرجرونهم على سلالم البناية رأت هيلدا الجيران يتتابعون في فتح أبوابهم ليستطلعوا سبب الجلبة، ثم يسارعون في إحكام إغلاقها في ذعر بادٍ.

برلين الشرقية ـ ألمانيا الشرقية

27 يناير 1964

في غرفة مربعة يجثم ضيقها على من فيها، وقف سيپ بالقرب من حائطها متمنيًا أن يستطيع الاستناد إليه، لولا تعليمات المحققين الواقفين أمامه بأن ينتصب في وقفته وألا يقترب من الحائط. لم يعد به إدراك للأيام ولا للمدة التي قضاها في هذا المكان، أو بالأصح لم يعد واعيًا سوى بالآلام التي يعانيها. حتى الآلام، لم يستطع أن يرتب أيها أشد وطأة عليه: ألم وجهه من أثر الضرب المستمر حين لا يجيب الإجابة المرجوة، أم ألم أصابع يده اليمنى التي تيبست بعد كسرها وتورمت دون علاج، فازدادت ازرقاقًا بعد أن أوعز أحد المحققين للآخر أن في ذلك نهاية لعبه على الساكسفون. أو لعله ألم الجوع الذي أصبح رفيق بطنه من شُح ما يقدِّمونه من طعام. قفز في ذهنه على رأس قائمة معاناته حاجته إلى النوم، الذي تفننوا في أن يجعلوه عزيزًا عليه. ما لبث أن عاد سريعًا متألمًا وكارهًا لنفسه ولأنانيته، أن تتغلب أوجاعه الجسمانية عما يجب أن يقلقه أكثر من أي شيء؛ مصير هيلدا، وصغيرته جريتا! يريد أن يذرف الدمع على فراقهما كما استطاع ذلك في بداية محبسه، ولكنهم لم يسمحوا له بذلك في دوامة العذاب التي ألقوا به في خضمها. لم يعد في نفسه قدرة على التفكير في الآخرين مهما قَرُبوا، ولم يكن به سوى انكسار واستسلام تام، لم يُشبِعا هذين المحققين اللذين استمرا في العودة من أجل المزيد.

حين خرج أحدهما من الغرفة همس الآخر بصوت ملؤه الطيبة:

ـ سيپ؛ أريد أن أساعدك وأخرجك من هنا.

ـ أرجوك، وأعدك أن أفعل كل ما تريد.

ـ إذن كل ما عليك أن تقر بأسماء الخلية التي كونتها للعمل على قلب النظام.

ـ لا توجد خلية.. أقسم لك أنني أحب ألمانيا وأساند النظام..

لا توجد خلية.

ـ ستعود للعناد من جديد، ولن أستطيع معاونتك إن أصررت على ذلك.

بوهن شديد عاد سيپ:

ـ لا أدري عما تتكلمون.. لو أعرف من لا يساند النظام سأكون أول من يدلكم عليه.

ـ أنت دائم الانتقاد للنظام، وكثيرًا ما سخرت منه.. من معك؟ من يؤمن بآرائك ويهاجم النظام مثلك؟

حينذاك دخل المحقق الآخر الغرفة وهو محتد:

ـ قلت لك لا فائدة معه.. أرسله لزنزانته الآن .. الترياق الجديد سيجعله يقر بجرمه؛ سنجربه عليه غدًا.

من الغرفة الضيقة لزنزانة أضيق؛ ظلامها دامس وجوانبها تكاد تتلامس. حين دفعوه إلى داخلها تكور حيث سقط وأغمض عينيه؛ لم تعاوده رؤى زوجته أو ابنته، تملكته فقط رغبة عارمة في غلق جفنيه والنوم.. نوم أصبح أمنية يعلم وهو يستسلم له بأنهم لن يسمحوا بأن يطول. ما كاد يجفل حتى سطعت الزنزانة بضياء شديد وكأنه في بؤرة الشمس، ومن خلف الجدران جاءه صوت ذو رنة مفزعة يصيح:

ـ ماذا بك يا سيپ! اسم أو اسمان لشركائك وتجد نفسك بالخارج من جديد.. ما الصعب في ذلك؟

* * *

جلس ڤايتسمان ينصت باهتمام للجالس أمام مكتبه.

ـ هل تأكدت من شخصيتها؟

ـ كل الأوراق تشير إلى أنها ليليان شميدت.

ـ لا مجال للخطأ يا ڤايتسمان.. من بعد أيخمان لا بد ألا يكون هناك مجال للتشكيك في أوراق القضايا.. أمامنا فرصة لن تتكرر لتقديم هؤلاء المجرمين للعدالة.. لكن الأثر سيكون عكسيًّا لو أفلت أحدهم من المحاكمة.. سنخسر الزخم الذي اكتسبناه.

ـ ما زلت أدقق في المعلومات وأجمع المزيد من أدلة تورطها.. إن كانت هي ليليان فهي أحد مساعدي أيخمان المقربين.

ـ أكرر: لا بد من التأكد التام قبل أن نخطو أي خطوة.

ـ أخاف أن تشعر بقربنا منها فتختفي كما فعل آخرون.. كما أن لنا أصدقاء يبلغون عنهم لهم من يحذرهم وينبههم لما ندبر.

ـ أصدقاؤهم سيبذلون قصارى جهدهم في إجهاض بلاغاتنا إن كان بها ذرة شك.. مهم جدًّا الآن أن نصطاد نازيًّا جديدًا ونقدمه للمحاكمة، وهنا في ألمانيا.. لا بد من استثمار ما تحقق من وراء قنص أيخمان.

سكت الرجلان قليلًا قبل أن يعود الضيف مقترحًا:

ـ من أصول الصيد الجيد أن تذيق الفريسة طعمًا.. اجعلها تذعر ففي الأغلب ستحاول أن تطمس مزيدًا من آثارها، وحينذاك ستتأكد إن كانت هي.. كما أنها قد تعطيك من وسط فزعها مزيدًا من الأدلة التي تحتاجها.

* * *

قدر مديري الموقف الذي أمر به حين أخبرته عن اختفاء هيلدا، وحاجتي للمتابعة مع مكتب اتصال الخارجية يومًا بعد يوم، فسمح لي بمد ساعة الغداء لساعتين. في نفس الوقت تململ المسئول عن بلاغي بخصوص هيلدا من كثرة زياراتي، فارتأيت أن أذهب إليه مرتين في الأسبوع على الأكثر. اليوم الإثنين، وجدته مناسبًا وإن توقعت إجابته التقليدية بأني لا يجب أن أنتظر إجابات جديدة عقب عطلة نهاية الأسبوع. أظنه قصد إطالة انتظاري أمام مكتبه قبل مقابلته. لعله ظن أن بروده قد يفقدني عزمي على متابعة البلاغ والوصول لمكان هيلدا.

حين دخلت إليه فوجئت به بشوشًا على غير عادته.

ـ أنباء ممتازة يا ليليان.. أخيرًا تأكدنا أن هيلدا محتجزة بمعرفة الستازي.

ـ الستازي؟

ـ نعم شرطة ألمانيا الشرقية السرية.

ـ وما الممتاز في هذا؟ كل ما سمعته عن هؤلاء يشير إلى أنهم أشرار.

ـ كونهم أخبرونا بوجودها لديهم يعني أنهم يريدون التفاوض.

ـ تفاوض؟ على أي شيء يتم التفاوض؟ هيلدا إنسانة لا تملك أي شيء يريدونه.. هيلدا مسالمة جدًّا.

ـ التفاوض من أجل فديتها.

ـ فدية؟ هل هي مختطفة؟

تململ من تساؤلاتي قبل أن يرد عليّ:

ـ هم يعرفون أننا مستعدون لدفع مقابل مادي من أجل حرية مواطنينا الذين يحتجزونهم.. حالات كثيرة قبل أختك تم معها هذا وأعادوهم.. أهم خطوة الآن أنهم اعترفوا بأنهم يحتجزونها.. سيبدأون في طلب مقابل من أجل الإفراج عنها وإعادتها.. أظن أنها مسألة وقت قبل أن تكون هيلدا معنا في ألمانيا الغربية.

ـ وزوجها؟ وابنتها؟

ـ لم يذكروا أي شيء بخصوصهما بعد.. ولكنني واثق أننا سنستطيع التوصل لاتفاق معهم.

ـ لا أملك أموالًا لدفع فدية.. كم سيطلبون؟

ـ حكومتنا تدفع الفدية.. لا تقلقي من هذه المسألة.. المهم الآن أن تعود هيلدا وعائلتها سالمين.. هذا هو ما سنركز عليه الآن. .

* * *

كلام الموظف معي اليوم أعطاني طمأنينة غابت عني طوال الأسابيع الماضية. حين عدت إلى المنزل، أحسست أني أرغب في مكافأة نفسي وقضاء أمسية أقل جزعًا مما مر عليّ طوال الشهر الماضي. أعددت المائدة لثلاثة أفراد، وكأن هيلدا وزوجها على وشك الوصول، وحضرت قطعة لحم أتقنت تسويتها وصببت لنفسي كأسًا من زجاجة النبيذ الأحمر المفضلة لدي. أريد أن أنام اليوم نومًا متصلًا لا تقطعه كوابيس ولا تتخلله إفاقة فزعة، بسبب مشاهد مقلقة لمعاناة هيلدا يفرضها عليّ عقلي الباطن. حين أوشكت على دخول سريري، تصورت أنني سمعت دقة أو دقتين خفيفتين على باب الشقة. تسمرت مكاني لا أدري إن كان ممكنًا أن تكون هذه يد أختي تطرق الباب. هل يكون الموظف قد أراد مفاجأتي؟ أسرعت أفتح الباب فلم أجد أحدًا؛ قبل أن ألحظ مظروفًا أبيض ملقى أمامي. حين فتحته وجدت ورقة مطوية مكتوبًا عليها بالآلة الكاتبة:

«أيخمان وإن كان رأس الأفعى فهو أول صيدنا، ولن نترككم تنعمون بحياتكم يا مجرمين.. سنطارد الأفعى دون كلل، حتى أصغر جزء من

ذيلها.

إلى لقاء قريب يا ليليان شميدت (نعم نحن نعرف من أنتِ!)».

القاهرة ـ مصر

3 نوفمبر 1992

خواء داخلي وعجز تام عن الشعور، كان الإحساس الذي ظل ملازمًا لي طوال الفترة الماضية، وما زال يلتبسني وأنا أصعد سلم الطائرة المغادرة إلى برلين. منذ سقوط حائطها الشهير قبل عامين، وأنا أضع هذه المدينة على قائمة المدن التي أرغب في زيارتها، والآن وقد جاءتني الفرصة لا أجد أي إثارة لرحلة توشك أن تبدأ. لا رغبة بي لاكتشاف المدينة ولا سبر غموض ما أمر به، وما قد ينتظرني في ألمانيا من كشف لما صار حقيقة أقرب إلى الخيال عن حياتي. دون مقدمات غدت هذه الرحلة واقعًا أعيشه وترجمة لحقيقة حياة تبين لي أنها تأسست على كذبة كبيرة.

جلست على مقعدي وأحكمت ربط حزامه، وغصت في مسند الرأس وأنا أغمض عينيّ. لم أبدأ في استرجاع أحداث الفترة الماضية، لكنها أبت إلا أن تسترجعني.

من وسط ضجيج الإقلاع، ارتفع في ذهني صوت سيارة الإسعاف وهي تتوقف أمام البيت، فتح المسعفون أبوابها فيما أهرول خلف النقالة التي تحمل أمي، وعم آدم يعاون المسعفين في حملها قبل أن نقفز جميعًا إلى جوار فاقدة الوعي التي استقرت بداخل السيارة. لم تتعاون شوارع القاهرة معنا، فأصرت بازدحامها أن تطيل رحلتنا إلى المستشفى. عند مدخل الطوارئ بمستشفى قصر العيني أخذوها وأوقفوني بقسوة عند باب أبيض، لتختفي عن عينيّ ونحن نُؤمر:

ـ انتظروا هنا..

أتذكر آخر ما قالته لي، كلمات مدغمة متسارعة ما بين اعتذار ورجاء قبل أن تتخاذل ساقاها لألحقها قبل السقوط. أناديها فلا ترد، وكلمات ما قبل انهيارها تدوّي في أذنيّ. أعيد النداء بلا رد فأصرخ صرخة لم تعتدها عمارة الأرستقراطية، ليطوي عم آدم السلالم لشقتنا بما لا يتوافق مع شيبته، لأجده أمامي مساندًا وساندًا أمي التي فقدت الوعي بعدما بهتها سؤالي.

ـ سنبقيها في العناية المركزة.. تعاني من انهيار عصبي.

ما زلت أتقوقع أمام الباب الأبيض الذي منعوني من تجاوزه، حين يصل فريد الذي اتصل به عم آدم كما طلبت، أجد في الوجه الذي أحببته بعض الراحة التي غابت عني منذ الصباح. أجري نحوه وأرتمي في حضنه غير مبالية بنظرات المحيطين. من حضنه أمام العناية المركزة، إلى ومضة اكثر سعادة؛ طالبة في الجامعة الأمريكية في سنة تخرجها؛ أتذكر جيدًا ما كنت أرتديه: بنطالي الجينز وقميصًا أبيض عليه نقوش زرقاء خافتة. أجلس بجوار فريد في قاعة إيوارت نشاهد مسرحية يوليوس قيصر من إنتاج قسم الدراما. يومها لم أفهم سبب إصراره على الجلوس في ركن الصف الأخير، ومقاعد القاعة نصف خاوية وبإمكاننا الجلوس في الأمام. أمسك بيدي بدءًا من المشهد الأول، وحين بدأ مارك أنطوني في خطبته العصماء الشهيرة مال فريد بجذعه نحوي وطبع على شفتيّ قبلة. تسارعت ضربات قلبي وشعرت بالحمرة تكسو وجهي قبل أن أمد شفتيّ طالبة منه أن يتبع قبلتنا الأولى بأخرى أكثر عذوبة وأكثر طولًا، رسخت همسته إحساسها:

ـ أحبك يا ليلى.

على مقعدين نصف آدميين في بهو المستشفى، جلسنا أحكي له أحداث يومي بدءًا من زيارة الألماني وانتهاء بحجز أمي في العناية المركزة. الجزء الذي كان عنوان يومي تراجع واندثر بقربي من فريد ومن بعد حضنه.

الآن وبعد ما جرى أتذكر كيف استمرت ملامح وجهه جامدةً وأنا أحكي له ما عرفت. استمررت في الحكي دون توقف ودون ترك تفصيلة صرت أعرفها. حين انتهيت استمر سكوته قبل أن ينظر إليّ وبمنطقية لم أستطع ردها يقول:

ـ سآخذكِ إلى البيت الآن؛ لا جدوى من انتظاركِ هنا.. لنعُد في الصباح.

وعدتُ في الصباح، يومًا بعد الآخر لا يؤنس وحدتي إلا عم آدم في زيارته اليومية. لم يظهر فريد، وأصبح الرد المعتاد من أمه على مكالمتي أنه مشغول في عمله بوزارة الخارجية. بعد يومين أضافت حماتي المستقبلية أنه حاول الاتصال بي، ويبدو أنني لم أكن بالمنزل.

خمسة أو ستة أيام مرت وأمي على حالها، وإن كان الأطباء يكررون أن الحالة نفسية، وأنها باستثناء ذلك في خير حال. نقلوها لغرفة عادية وأنا لا أبرح جوارها صباحًا ولا مساءً. لا أذكر كم يومًا مر حين التفتت إليّ ونطقت أخيرًا:

ـ أنتِ حياتي..

دمعة انسابت من عينها تسابق تلك التي انسابت من مقلتي. أمسكت يدها وملت عليها أحتضنها برفق. حين رفعت رأسي أنظر إليها رمتني بنظرة تتأرجح بين الندم والعتاب. لم أشعر بخيانة ولا بهجر بقدر ما شعرت بحب شديد لتلك السيدة الراقدة أمامي عاجزة، على غير معتادها حين تطمئنني بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

عدنا إلى المنزل وانقطع الكلام بيننا؛ أظنه خوفًا مني عليها وخوفًا منها من مواجهة لا نتاج لها إلا المزيد من الأحزان. استمررت في الاتصال بفريد وأنا أمني نفسي باتصاله وقد صارت حجة عدم وجودي بالمنزل واهية. الآن أندم على سذاجتي وأثور على ضعفي وعدم فهمي للرسالة التي أراد إيصالها إليّ.

ـ تعالي للغداء معي وفريد غدًا.

دعوة أمه سرتني وجعلتني في حالة فرحة طالت إطلالتها. في الميعاد ارتديت ما يفضله عليّ من ثياب. كنت في غاية الاشتياق لرؤيته، وإن انتويت أن أعتب عليه اختفاءه طوال الأيام الماضية، برغم تقديري لانشغاله. كذبت على أمي وأفهمتها أن السبب وراء عدم سؤاله أنه مسافر.

حين رأيت أم فريد ذلك اليوم لم أتمالك دموعي بينما أحتضنها في اشتياق. كنت أحبها لأنها طالما عاملتني وكأني ابنتها، والأهم أنها أم حبيبي. لم يطل حديثنا، وإن أخبرتني أن فريد سيكون معنا بعد قليل. ما لبثت أن قطعَت الصمت حين قالت:

ـ أريد أن أحدثك في موضوع.

ـ تفضلي.

ـ لن أطيل عليكِ.. طبعًا تعرفين أن فريد طيلة حياته يحلم بأن يكون دبلوماسيًّا مثل والده، ومن قبل ذلك جديه الاثنين.

أومأت برأسي مؤكدة درايتي بما تقول.

ـ الدبلوماسي سمعة، وأي نقطة سوداء في ملفه تؤثر في مسيرته.. أظنكِ تعلمين ذلك جيدًا.

لم تكن تنتظر مني ردًّا.

ـ الوضع الذي حكيتِ لفريد عنه وضع غير عادي.. باختصار شديد، لا أظن

أن المصلحة تقتضي استمراركما معًا.

لم نتناول الغداء معًا في ذلك اليوم، وما زال وجهه الجامد في المستشفى هو آخر ما أتذكره منه. ما زلت أحبه دون شك، وإن كان هذا الحب قد صار ملطخًا بنذالة لم أرَ دليلًا عليها منذ أيام الجامعة مرورًا بأيام الخطبة التي خططنا لإنهائها بالزواج بداية العام التالي. حزني لم يتحول لندم، لأني طالما آمنت أن العشق ليس قرارًا نتخذه بل إنه من يتخذ قلوبًا بعينها لسكناه. احترت فقط ما بين الغضب من دبلوماسية الهجر الذي تعرضت له، أو الحمد على انكشاف الوجوه سريعًا قبل خوض تجربة تنتهي باكتشافي أن من أحب يبادلني الحب متى كان مناسبًا له.

لم تُتح لي الفرصة لألعق جراحي إذ ظهر هيلموت من جديد يشدد على ضرورة سفري إلى برلين في أقرب فرصة، لإنهاء ما صار معلقًا بوجودي. اتفقت معه على موعد السفر، وهأنذا أفي بوعدي له، وأجلس في مقعد الطائرة التي أقلعت بي نحو مجهول قد لا يكون به بر للرسو.

انتبهت على صوت الجالس على المقعد المجاور لي، يريد بدء حديث:

ـ ألمانية؟

تذكرت بياض بشرتي وشعري الأقرب للشقار، والكذبة التي طالما صدقت أبي وأمي بينما يؤكدان أن ملامحي تلك ممتدة من جدة لأمي وفدت لمصر مع من هاجر من الشام. ابتسمت وأنا أرد عليه:

ـ ربما!

برلين الغربية ـ ألمانيا الغربية

1 فبراير 1964

كعادتها الدائمة وصلت إلى المقهى قبل الميعاد المتفق عليه. تفحصت المكان، واختارت طاولة منزوية في آخر المكان لتجلس عليها في انتظار رجل لا تعرفه أصر على أن يقابلها. لو لم يكن بينهما هذا الصديق المشترك لما وافقت على المقابلة، التي لا بد أن تعيد إلى الذاكرة ما تحاول بكل جوارحها طمسه. إصراره أن ما سيتكلم فيه تعدى مرحلة أن يخصها وحدها، وأنه يعمل لأجل أناس ما عادوا موجودين، وأن واجبها الأخلاقي يحتم عليها معاونته، كل ذلك جعلها، وعلى مضض كثير، تأتي اليوم. قسمات وجهها بدأت تغزوها علامات الزمن التي تسارعت من فرط ما مرت به، لكن شعرها كان

ما زال على سواده الداكن، لم تستسلم خصلة منه لهجمات الشيب التي آن أوانها. تفاصيل وتقاطيع وجهها لا تزال خليطًا دقيقًا بين أوروبية أمها وشرقية أبيها، بقسمة التزمت كل معايير العدل. بدأت في احتساء فنجان القهوة الذي أتاها به النادل، وهي تستعيد ما اجتهدت في وضعه في أقصى دهاليز ذكرياتها. لم تتسامح فيما مرت به، ولم ولن تنسى فقدانها لأهلها دون سبب سوى هوية ولدوا بها، لكنها فاوضت نفسها لكي تطمس ما استطاعت ما تشعر به من أسى كي تستمر في حياتها. لم يكن بها قوة لانتقام أو رغبة به، وارتكنت على نعمة النسيان من أجل ألا تستمر في خوض الحياة حاملة كوابيس ما مرت به في أوشڤيتز. قاطع انغماسها في الأفكار صوته:

ـ راشيل مائير؟

ـ نعم.

ـ أنا شيمون ڤايتسمان.. أشكر لكِ موافقتكِ على مقابلتي.

بدأ يشرح لها طبيعة ما يقوم به من تتبع لمن شاركوا في الهولوكوست من النازيين، ومحاولته حصر الأدلة وتحضير المستندات التي تدينهم من أجل تقديمهم للعدالة. تكلم باستفاضة عما يقوم به من مطاردة هو وأمثاله، وإن كان لن يعيد من ذهبوا بلا رجعة، لكنه على الأقل سيجعلهم يرتاحون حيث يرقدون. شرح أن واجبه وواجب من يستطيع مساعدته ألا يهرب المجرمون بفعلتهم، وأن عدم تركهم خدمة للإنسانية في عمومهما لأن في عقابهم ردعًا للأجيال القادمة

من الانزلاق في درك البشاعة التي أتوها.

ـ طلبت لقاءكِ لأسألكِ عن جارة لكِ.. أتذكرين ليليان شميدت؟

ـ نعم.. كانت تسكن في المنزل المقابل لمنزلنا.

ـ المعلومات تشير لكونها كانت أحد مساعدي أيخمان.

اقشعرَّت راشيل حين سمعت اسم من صارَت تعلم أنه من أمر بترحيل أسرتها ضمن آلاف الأسر إلى أوشڤيتز.

ـ الملف الذي جمعته ملف قوي جدًّا، ومعي مستندات كثيرة توضح أنها كانت جزءًا من منظومة القبض على اليهود وترحيلهم لمعسكرات الموت.

وكأنه يريدها أن تستعيد ما مرت به في هذا المكان البغيض؛ سكت ڤايتسمان للحظات ظنت أنها لن تنتهي قبل أن يواصل:

ـ ينقصني في هذا الملف ما يجعله غير قابل للنقض: شهادة شاهد.

* * *

لم أضئ سوى مصباح خافت وأنا متكورة على مقعدي في البيت، بجانب باب الخروج. بيدي أقبض على الرسالة التي وصلتني قبل أيام، أعيد قراءتها كل حين وأدقق في كلماتها، أنا التي حفظت كل حرف بها. لم يعد بي قدرة على الصمود أمام صفعات القدر المتوالية بلا هوادة. لم أعُد أدري ما اشتد عليه وطأته بدرجة أكبر: اختفاء هيلدا، أم فقدان أيخمان، أم وحدتي بعد رحيل والديّ، أم أخيرًا هذا التهديد الصريح الموجه لي شخصيًّا. لم أعُد أستطيع تحمل ذعر أكثر مما أواجهه، وصارت بي بلادة لم أعهدها. لا مبالاة أعادت لي مشاعر اليأس التي اجتاحتني يوم ركع الوطن أمام ساحقيه؛ تلك الذكرى التي ظننت أنني تجاوزتها.

كان قد مر يومان على ذهابي إلى حانة الحديقة الخضراء أبحث عنه. الحانة لها عبق وذكريات جميلة عندي فهي المكان الذي طالما تجمع فيه الأصدقاء من الوطنيين أيام عظمة ألمانيا وعليائها. وأنا أدخلها، رنت في أذنيّ ضحكات طالما استمتعت بدفئها، وأنا أحتسي شرابي مع من حلموا معي بنفس حلم سيادة وقيادة العالم الذي تجمع علينا ليسلبنا إياه. ولكن حين ذهبت منذ يومين أبحث عنه وجدتها بلا روح، مقبضة ووجوهها فاقدة لبريقها الذي اعتادته أركان الحانة. بدا لي أن

الحضور جميعًا يشاركونني جزعي، وأن الانكسار الذي بي يسود المكان. لم أحتَج لبحث طويل إذ وجدته جالسًا أمام الساقي، بذراعه اليمنى المفتولة التي تبقت له بعد فقدانه يسراه في آخر أيام الدفاع عن برلين.

ـ لوكاس.

تمعن في وجهي بعينيه اللتين اكتسيتا حُمرةً من أثر ما تجرعه، ثم صدحت قهقهته وهو ينتفض لمعانقتي:

ـ ليليان.

كنت أعرف أن لوكاس فقد طرفًا من أطرافه، ولكنه لم يفقد إيمانه بما حارب من أجله. ولهذا أيقنت أنني أستطيع الثقة به، وأنه في الأغلب الوحيد الذي سيتمكن من معاونتي. هو أول من قفز ببالي حين وصلتني تلك الرسالة المقيتة، بل لعله الوحيد الذي فكرت به حينذاك. مكتمل الجسد أو ناقصه؛ كان لا يزال الفتى الوسيم الذي أحببته يومًا، برغم أن قلبه لم يكن لي.

حين أطلعته على ما جاءني وما يحمله من تهديد واضح غير مغلف، بدا لي أن كل آثار الخمر الذي احتساه توارت وانسحبت. تجهم وجهه وعلاه الاهتمام الذي كنت أبتغيه، وخفض صوته بعد أن طال تفكيره فقال لي:

ـ ليليان، سأتصرف.. فقط كوني مستعدة.. أعطِني يومًا أو يومين على الأكثر.

* * *

تخبطت خطوات راشيل وهي تغادر المقهى، تاركة ڤايتسمان خلفها ونظرة حيرة على وجهه. سيطر عليها مشهد يوم اجتاح بيتهم الضباط ببزاتهم السوداء، واقتيادهم لها وأبيها وأمها لمعسكر الاحتجاز على أطراف برلين. من المعسكر ساقوهم كالبهائم إلى رصيف القطار ثم لداخل عربة القطار المكتظة بالأجساد المفزوعة، التي تتصارع من أجل الحصول على أنفاس الهواء الذي كان ترفًا في رحلتهم إلى أوشڤيتز. لم يدروا إلى أي مكان يذهبون ولم يكن بهم قدرة على التفكير. حين نزلوا من القطار رصوهم: الرجال في ناحية والنساء في الأخرى. منذ تلك اللحظة لم تفارقها يومًا نظرة أبيها وهم يقودون طابور الرجال في صرامة أمامهم. نظرته التي لم تدرك حين رمقها بها أنها الأخيرة التي سيتبادلونها. تذكرت يد أمها في ذلك اليوم وهي

تنفك من يدها وهم يسحبونها هي الأخرى بلا عودة. توالت أيامها قاتلة في هذا المكان المقيت، وهي تنتظر دورها الذي لا عودة من بعده.

لعنت في سرها ڤايتسمان الذي أحيا كل ما ظنت أنها استطاعت دفنه في ثنايا ذاكرتها. علا في رأسها طلبه:

ـ أريدك أن تشهدي أن ليليان هي من أبلغت عنكم.. أو على الأقل أنك تظنين ذلك!

وكأن طلبه طار بها لتلك الأمسية وهي عائدة لبيتها، حين خرج الجنرال ونادى عليها:

ـ ليليان.. لماذا تأخرتِ؟ ادخلي إلى المنزل.

تتذكر كيف تخبطت خطواتها وهي تستغرب نداءه، وأنها تفهمت فيما بعد كيف أنقذها بتدخله هذا من المتهورين الواقفين أمام منزلها، الذين لمعت أعينهم حين ظنوا أنهم على وشك اقتناص فريسة.

انسحبت ذكرى تلك الليلة وتوارت خلف جروح معسكر الموت الذي فارقها فيه كل من تحب. اقشعرت وهي تتخيل أباها وأمها يصارعان الموت في غرف الغاز، يحاولان تلمس النفس قبل أن تفارقهما الحياة. تذكرت أيام الشقاء في أوشڤيتز، وهي في انتظار يوم ينفذ حكم موت قرر جلادوها أنها تستحقه بسبب عرقها. استعادت في جلستها كم مرافقيها وهم يسحبون يومًا بعد الآخر إلى أفران الموت.

تلعثمت وهي ترد على طلب ڤايتسمان:

ـ سأفكر فيما تقول.

* * *

ما زلت متقوقعة على مقعدي، تطوف بذهني خاطرة أن لوكاس إما نسي وعده أو لعله، من فرط ما تجرع من خمر ذلك اليوم، لم يتذكر طلبي. ما زال الخطاب اللعين في يدي وضربات قلبي تتلاحق كما اعتادت منذ استلمته. من وسط الضوء الخافت تصورت أنني سمعت دقة أو دقتين خفيفتين على باب الشقة. ذعرت وظننت أن عقلي يتلاعب بي فيعيد لسمعي تلك الدقات، التي وجدت من بعدها رسالة التهديد قابعة تنتظرني. تواصل الطرق الخفيف فلم أجد بدًّا من استجماع ما تبقى بي من شجاعة، فقمت لأفتح الباب ببطء مملوء رعبًا ممن على ناحيته الأخرى.

من وسط الظلمة الدامسة همس الواقف أمام بابي:

ـ ليليان، هيا بنا!

زرمات ـ سويسرا

5 فبراير 1964

كورت جسدي وأنا ألتصق بجسم النائم بجانبي في سريري، لآخذ وضع الجنين من خلفه وأنا أتلمس مزيدًا من الدفء في السرير الذي تشاركناه. لم تمض ثوان قبل أن أعي، وأنا نصف نائمة، أن ليس بيننا ما يسمح بهذه الحميمية، فأسرعت متباعدة ثم ما لبثت أن انتفضت من السرير أتلمس طريقي في الظلام إلى الشباك، الذي بدأ يسمح لأول أضواء الفجر بالتسلل للغرفة. نظرت إلى الرجل المستغرق في نوم عميق وأنا مستغربة حالي وما آل إليه: هاربة في كنف المجهول يتولاني رجل تعرفت على اسمه بعد يوم أو يومين من اصطحابه لي من شقتي في برلين. تبعته في صمت ودون أسئلة أو استفسارات منذ أنبأني بأنه من طرف لوكاس، وأنه ومن معه مهمتهم أن يصلوا بي إلى مكان آمن بعيد عن أعين وأيدي من يريدونني ضحية من ضحاياهم. ومن أجل هذا وكل ما تكبده من أجلي، كنت أنا من أصررت على مشاركته السرير، رافضة أن ينام على الأرض كما اقترح بشهامة.

انتقل نظري إلى النافذة لأشهد صراع الشمس بينما تحاول تسلق في تؤدة قمة الماترهورن الشاهقة التي تلقي بظلالها على قرية زرمات، وفي نفس الآن هي نبع الخير الذي يقتات منه وبسببه أهلها. رأيت عربات الخيل تتنقل ببضاعتها وركابها الصباحيين ودق الحوافر على الأرض يعطي موسيقى تثري الخلفية للمشهد البهي الذي أطالعه. لم أعد أتعجب من كون هذه القرية اختارت ونحن في منتصف الستينيات ألا تدخلها الأحصنة الميكانيكية، واختاروا أن يكتفوا بالدواب وعرباتهم وسائل انتقال، ليعطوا لمسة مدهشة تضيف لما حباهم به القدر من جمال الطبيعة. كسا الجليد معظم المشهد من شجر وأرصفة وأسقف البيوت المائلة، لتكسر نصاعته الرمادية التي حاول المناخ فرضها على القرية التي بدت وكأنها تتثاءب، وهي تستيقظ من سباتها في هذا الصباح الجديد. وفي سبيل غسل وجه زرمات هذا الصباح، تتابع سقوط قطرات المطر بين تسارع وتباطؤ في تناغم مع أحجام السحب التي حلقت في سمائها تحجب الشمس تارة ثم تستعرضها تارة أخرى، وكأنها تغير عليها من أعين من بكّروا في نشاطهم.

تقلب هارالد في السرير، فلاحظت نصف الابتسامة التي لا تفارقه تزين وجهه حتى أثناء النوم. اكتمل تبسمه فقط حين اقتربنا من نقطة الحدود الثلاثية في أنسبروك، حيث تلتقي ألمانيا وسويسرا والنمسا.

أعاد التنبيه عليّ قبل أن يوقفنا ضابط الحدود:

ـ ابتسمي وابدي سعيدة فنحن في شهر عسلنا وفي طريقنا إلى زرمات لنقضيه هناك.

لم تطل وقفتنا، فقد كانت كل أوراقنا مستوفاة بما فيها شهادة زواج أخرجها هارالد من جيب سترته، حين أراد الضابط السويسري التحقق من سبب زيارتنا. بسبب تلك الشهادة التي فاجأني وجودها مضافًا إليها حجز لجناح العرسان بفندق زرمات، لم يطل الضابط وقفتنا قبل أن يرد الأوراق لهارالد وهو يشير لجندي الحدود برفع الحاجز كي نمر إلى سويسرا.

* * *

قبل أيام في برلين جلس ڤايتسمان أمام النائب العام الألماني يراجعان سويًّا أوراق البلاغ الذي تقدم به ضد ليليان شميدت. ملف كبير تقدم به، حوى تفاصيل عملها مع أيخمان من واقع مستندات الجستاپو، كما ضم كل ما في السجلات منذ مولدها مرورًا بتغييرها لاسمها إلى ليليان بيكر، حتى البلاغ الذي تقدمت به بخصوص اختفاء شقيقتها هيلدا.

ـ لدي شهود أيضًا سنتقدم بشهادتهم في الوقت المناسب، وإن كنت أفضل ألا يظهروا في الصورة الآن.

ـ كما قلت لك، فقد قبلنا البلاغ وسنقوم بالتحقيق فيه.. هذا الموضوع مهم لنا كما هو مهم لكم.. فقط لا أريد أي تهور من جانبكم!

ـ كما ترى، نحن نعمل من خلال القنوات القانونية.. لو أردنا تهورًا لما كنت جالسًا أمامك الآن.

ـ ونحن كما قلت لك مهتمون بهذا البلاغ.. نريد أن نقدمها للمحاكمة لو كانت مذنبة، ونريد للعدالة الألمانية أن تثبت للعالم أجمع أننا لا نتستر على مجرم مهما قَدُم جرمه.

ـ المشكلة الآن أنها اختفت، وأخشى أن تهرب إلى الخارج.

ـ ولذلك أبلغنا كل نقاط الحدود.

ـ ليس كافيًا يا سيدي.. أرجوك أن تبلغ حدود الدول المجاورة أيضًا.

ـ قمنا بذلك.. النمسا وسويسرا وضعاها على قوائم الهاربين.

ـ وفرنسا.. والأهم إيطاليا.

ـ إيطاليا! لا حدود بيننا وبين إيطاليا.. ولا فرنسا..

ـ سيدي الفاضل، إيطاليا بالذات بها كثير من التعاطف مع النازيين.. رجال الڤاتيكان ساعدوا الآلاف منهم على الهرب.. قد يكون الكاردينال هودل مات، ولكن بالتأكيد كثيرًا من تلاميذه سيحاولون أن يفعلوا مثلما فعل، مع من نجا من فلول النازي.

ـ سنبلغ إيطاليا وفرنسا.. ولكن أحذرك مرة أخرى من أية رعونة من جانبكم أو أية محاولة لمطاردتها بمعرفتكم.

* * *

أفاق هارالد من نومه ونزلنا لتناول الفطور في مطعم الفندق. كان أول ما سألته:

ـ مزيد من التدريب على التزحلق اليوم؟

ابتسم:

ـ لا يا ليليان.. اليوم هو اليوم الذي لن نتدرب فيه.. سننفذ ما تدربنا عليه.

ـ هل لي أن أسأل إلى أين أنا ذاهبة؟

ـ ليليان، من الأفضل لكِ أن تعلمي مساركِ خطوة بخطوة.. مطاردو النازيين في كل مكان، وأنتِ الآن فريستهم المفضلة.. أيديهم طائلة ولن يتركوكِ بسهولة.

رشف من فنجان قهوته قبل أن يعود:

ـ وللعلم، من أجل أمنكِ لا أعلم أنا نفسي إلى أين ستذهبين.. اسمعي.. أنا لا أريد أن أقلقكِ، ولكن الرفاق أبلغوني تليفونيًّا منذ يومين أنهم تقدموا ببلاغ ضدكِ بارتكابكِ جرائم ضد الإنسانية وجرائم حرب، وأنتِ تعلمين أن هذه التهم لا تسقط بالزمن..

وجمت وأنا أستمع إليه، وهواجس مصيري تتلاعب بذهني. من جديد بدأ

في إعطائي تعليمات دأب على ذكرها طوال الأيام السابقة:

ـ يجب عليكِ ألا تحاولي الاتصال بأي من معارفكِ، وبالذات في ألمانيا.. حين تصلين إلى محطتكِ النهائية انسي كل ما سبق من حياتكِ وعيشي بالشخصية التي ستصبحينها.. اعلمي أنهم لن يتركوكِ مهما طال أمد اختفائكِ، وسيتحينون الفرصة للوثب والتمكن من صيدهم الثمين.. تذكري أنكِ تدينين لي وللرفاق بهذه السرية مقابل ما تكبدناه كي نساعدكِ، لأنهم إن وصلوا إليكِ لن يتركوا كل من عاونكِ.. وقد لا نستطيع أن نعاون غيركِ.

بابتسامة واسعة أنهى كلامه:

ـ هيا قومي واستعدي.. اليوم سننتزلج على السفح الغربي للماترهورن، حتى أصل بكِ إلى الحدود الإيطالية، ومن هناك سيتسلمكِ أحد رجالنا ليعبر بكِ لإيطاليا.. ولا تسأليني عما بعد ذلك فأنا لا أعلم.

* * *

مر التزلج على السفح الغربي للجبل بسلام، وأتت تدريبات هارالد بالنتيجة المرجوة. حين وصلنا أسفل الماترهورن، قادنا هارالد لكوخ خشبي عتيق لا أدري من أين جاء بمفتاحه. لم نمضِ وقتًا طويلًا بداخله قبل أن يباغتني:

ـ سأتركك الآن.. أنتِ على الحدود السويسرية الإيطالية، وسيأتي كما قلت لكِ من سيصحبكِ لداخل إيطاليا.

ضمني إليه وقبل جبهتي قبل أن يفارقني قائلًا:

ـ سعدت بمعرفتكِ.. أتمنى لكِ التوفيق في حياتكِ الجديدة.

لا أدري كم من الوقت مر منذ مغادرته، ولكني كنت قابعة في ركن الكوخ على وشك النوم حين علا صرير الباب الخشبي. سمعت خطوات من دخل الذي وجه إليّ حديثًا بألمانية ركيكة مملوءة بلهجة إيطالية:

ـ ليليان.. جئت لاصطحابكِ.

قمت من مكاني أستعد للمغادرة، ولكنه أوقفني وهو يعرض علي ورقة بيده:

ـ انظري، لقد بعثوا إلينا صورتكِ في هذه النشرة كي نقبض عليكِ.

علت ضحكته:

ـ الآن تضاعف ثمن تهريبكِ.. عليكِ بدفع المتبقي لي.

لم أدرِ ماذا أقول، لكني سارعت بإخراج ما بجيوبي من نقود تركها لي هارالدَ قبل أن يغادر.

ـ لا، لا.. لن تكفيني نقودكِ.

قالها وهو يثب عليَّ ليسقطني على أرض الكوخ ويجثم فوقي. بدأت يداه تتحسس كل قطعة في جسدي، وأنفاسه المتلاحقة تغلف وجهي وهو يحاول تقبيلي. تغلب عليّ بعضلاته وقوة ذراعيه وسيطر على أية مقاومة حاولتها. لم أجد بي قوة حتى للصراخ وهو يعبث بملابسي ويفكك أزرارها، بعدما أسقط سرواله وبدأ في تناولي. اشتدت قبضتي بيديّ على الهواء البارد الذي يملأ الكوخ، ودموع القهر تنساب دافئة من عينيّ اللتين أغمضتهما وأنا أحاول أن أتغلب على ألم مواطئته. في ذهني كنت أحاول أن أنفصل عن واقعي، الذي اختلط فيه وجع الجسد المخترق مع هوان النفس وترديها.

چنوة ـ إيطاليا

7 فبراير 1964

سدت المرسيدس السوداء الشارع الضيق الملتوي، حين توقفت أمام كنيسة سانتا ماريا دي كاستيلو ومن خلفها سيارة الحرس. سارع طاقم الحراسة بالنزول من سيارتهم يتفحصون المنطقة قبل أن يشيروا لسائق المرسيدس الذي ترجل في ثوانٍ ليفتح بابها الخلفي. نزل فرانكو بتيجا من السيارة وبدأ يصعد في هدوء سلالم الكنيسة كما اعتاد صباح كل يوم، قبل أن يواصل رحلته إلى مكتبه. توقف لحظات ممررًا يده على شعره الأشيب، ثم تحسس بدلته الداكنة الأنيقة قبل أن يواصل خطواته إلى الداخل.

بدأ فرانكو في عبور البهو المحاط بالأعمدة الرخامية، التي تعلوها العقود الخشبية المقوسة التي تزين بها المكان منذ بنائه قبل ألف عام. لم يتوقف الرجل الستيني يومًا عن الشعور بالبهاء الذي يملأ المكان، والجمال الذي يصيب الناظر بمشاعر خشوع وسكينة مختلطين. قبل أن يصل إلى نهاية الردهة تطلع بإعجاب إلى تمثال يسوع الأسود المعلق قرب السقف، فأخفض عينيه وهو يرسم الصليب على صدره ويدعو الرب أن يبارك يومه.

وصل فرانكو لمقدمة صفوف الدكك الخشبية في الكنيسة التي كادت أن تخلو له، لولا اثنان آخران من المصلين. فتح الإنجيل الموضوع حيث جلس وبدأ في القراءة، ثم ما لبث أن وضعه إلى جانبه بعد دقائق وبدأ في الصلاة. شخص بصره على النقوش الذهبية البارزة وسط أعمدة يتوجها مزيد من الأقواس التي تميز الفترة التي بُنيت فيها الكنيسة. سرح في صورة السيد المسيح والسيدة العذراء وهو يتمتم بترانيمه التي اعتادها، ثم ختم صلاته بأدعية أن يوفَّق في يومه ويجعله مليئًا بالبركة، وأن يحفظ الرب عائلته من الشرور.

حين انتهى فرانكو من صلاته، اتجه إلى خلف مذبح الكنيسة حيث غرف القسس، ودق بهدوء على باب راعيها مستئذنًا في الدخول.

ـ ادخل.

فتح الباب ودلف إلى الداخل، مقبِّلًا خاتم القس الذي يزين يده التي امتدت إليه مصافحة.

ـ صباح الخير يا أبتاه.

ـ كيف حالك يا فرانكو؟

ـ كل شيء على ما يرام.

كان هذا هو اللقاء اليومي المعتاد بين فرانكو وقسيسه؛ جملة أو جملتان قصيرتان يتبعهما مباركة أخرى من الرجل الصالح، ودعاء له ولأهله بالصلاح وأن تكون أيامهم مملوءة نجاحًا وبركة. قبل أن يغادر نبهه القس:

ـ كما اتفقنا، ستحضر إليك اليوم الأخت مارجريتا، بخصوص الموضوع الذي تحدثنا فيه.

ـ لا تقلق يا أبتاه.. كل شيء جاهز.. لا مشاكل على الإطلاق.

* * *

في الغرفة الصغيرة الباردة، تدفع يداي بكل ما أوتيت من قوة الوحش الذي يجثم فوقي وأنفاسه تلهب وجهي ورقبتي. أبدأ في التصبب عرقًا وسط البرودة التي تحيط بسريري وأطلق صرخة مكتومة تختلط بدموع متسارعة على وجنتيّ. هكذا أصبح مشهد صحوي منذ أتيت لدير بستان البوسكيتو، بعدما عبر بي ذلك المجرم الحدود الإيطالية السويسرية وسلمني للراهبة التي رافقتني إلى جنوة. لم تستطع السكينة التي تملأ الدير أن تخلصني من الكابوس الذي أصر أن يطل عليّ متى نمت، حتى كدت أتحاشى النوم تفاديًا لتكراره.

ما يلبث المنظر الذي تطل عليه نافذتي أن يُهدئ من روعي. حديقة تكتسي خضرة وتتزين بالنخل الباسق، تحتضنها مباني الدير الصغير الذي بات ملاذي منذ حوالي أسبوع. لم يمنعني تلبد الأجواء بالغيوم من إطالة النظر من نافذتي، لأمتلئ هدوءًا من جمال المكان الذي يعمه سلام قلوب الراهبات. أكثر ما أذهلني كانت الروحانية التي غدوت عليها؛ أكثرت من الصلاة واعترفت للقس أكثر من مرة. أصبحت كمن تمر برحلة لم تخطط لها؛ رحلة لا ينتقل فيها الجسد من مكان لآخر، ولكن تسمو فيها الروح بهدوء شديد، وترتقي درجة تلو الأخرى نحو السمو عن خطايا البشر. ظل أمي صار يرافقني وأنا أتذكر تدينها، وكيف جعل منها إنسانة في سلام دائم مهما تلاطمتها أمواج الحياة.

قمت أغير ملابسي وأستعد للقائي مع الأخت مارجريتا، في الموعد الذي اتفقنا عليه بالأمس. عقدت العزم أن أطرح عليها سؤالي اليوم،

وأن أحاول من خلالها الوصول لإجابة على ما أصبح يحيرني، وما قد يصبح محددًا لمستقبلي.

طالعتني بابتسامتها المشرقة دومًا حين التقيتها؛ ابتسامة تنقي القلوب وهي تملؤها نورًا. كلما التقينا تختلط بداخلي بعض الغيرة من الصفاء الذي يغشاها مع رجاء أن أحظى ببعض مما عليه من النقاء الذي يشع به وجهها الصبوح.

ـ اليوم مليء بالأحداث يا ليليان.

هكذا بادرتني الأخت مارجريتا قبل أن تدعوني لأن أشاركها صلاة قصيرة نبدأ بها يومنا. ما إن انتهت، لم أستطع إلا أن ألقي عليها ما كان يحيرني:

ـ لماذا اخترتِ أن تكوني راهبة؟ لماذا تختار أي امرأة أن تكون راهبة؟

ازدادت ابتسامتها إشراقًا وتمهلت وعيناها تلمعان قبل أن ترد عليّ:

ـ كل واحدة لها أسبابها، ولكني أستطيع أن أخبرك بما جعلني أسلك طريق الرهبنة. منذ صغري وأنا أريد أن أخوض الحياة بأفضل طريقة أستطيعها، لأنني أظن أن هذا سبب وجودنا: أن نكون أفضل ما نستطيع. كامرأة كاثوليكية ملتزمة كانت خياراتي إما أن أعيش وحيدة أو أن أتزوج، أو أسلك طريق الدين. لا أقول طريق التدين لأنه من السهل أن يلازم الاختيارين الآخرين، ولكن أقول طريق الدين والانخراط في سلكه. كنت أظن أنني في الأغلب سأكون زوجة صالحة، ولطالما تمنيت أن أكون أمًّا يملأ أطفالي عليّ حياتي وأعطيهم من محبتي خالصة. لا أدري لمَ ولكنني قررت أن أجرب الرهبنة؛ في الأغلب كي لا أعود يومًا لأظن أنني لم أختبر ما قد يكون الرب رسمه لمستقبلي. لم تطُل حيرتي ووجدت أن كوني راهبة هو النداء الذي وجب عليّ تلبيته. هذه ليست وظيفة تمامًا مثلما الأمومة ليست بوظيفة، ولكن الاثنين نوعان من تحقيق الذات. الآن حين أنظر إلى ما مضى من عمري أجد أن ربي خصني وقربني منه، وبالتالي أفاض عليّ من فيض السعادة والسكينة التي تصحب القرب منه.

وهي تتحدث، أشعَّ وجهها ضياء العاشقة التي تتغزل في عشيقها قبل أن تتوقف عن الاسترسال:

ـ هيا يا ليليان، كفانا من أحاديث البنات.. كما قلت لكِ لدينا يوم مشحون.

* * *

الميناء هو قلب وعقل وروح جنوة، لذا كان من المنطقي أن تكون مكاتب أسرة بتيجا في مبنى قريب يطل عليه. النشاط المعلن للأسرة، التي أصبح فرانكو يترأسها من بعد أبيه، كان نشاط شحن السفن. لكن الستار الشرعي كانت تربض خلفه نشاطاتهم المتشعبة والأخطبوطية في مجالات الدعارة والمخدرات والجريمة المنظمة عمومًا، بالتعاون مع المافيا الصقلية. فرانكو هو بلا شك الرجل الأهم والأخطر، الذي يسيطر على حياة جنوة غير المعلنة وغير الشرعية. دانت له المدينة بمسئوليها وشرطتها، وسيطر دون منازعة على مجريات كل أوجه اقتصادها السفلي غير المعلن.

حين دخل إلى غرفته وجد ابنه ووريثه لورينزو في انتظاره، وفي عينيه لمعة حماس. لورينزو كان قد بدأ العمل مع أبيه منذ بضعة أشهر، وكم كان مصدر فخر لأبيه الذي رأى فيه شبابه واستطلع من أدائه أنه سيصبح أمهر منه في قيادة الأعمال. لم يستطع الشاب صبرًا على مشاركة فرانكو تفاصيل الصفقة التي أراد مباركته كي يعقدها:

ـ جاءني اتصال من برلين مساء أمس يا سيدي الدون.. أحد هؤلاء اليهود الذين يطاردون فلول النازي يظن أن إحدى الألمانيات النازيات ستحاول الهرب عن طريق جنوة، ويطلب أن نعاونه في إيقافها..
أتدري يا أبي ماذا قال لي: إن جنوة لا تنام ولا تستيقظ إلا بإمرة عائلة بتيجا، لذلك فهو واثق أنها لو كانت موجودة هنا فإننا نستطيع تسليمها إليه دون شك. في البداية عرض أن يدفع ثلاثين مليون ليرة إن سلمناها إليه، لكنني فاوضته فوصلت بالرقم إلى خمسين مليون ليرة.

ابتسم الأب سعيدًا بابنه، وهو يراه يشب أمام عينيه ويملؤه غبطة بمهارته.

* * *

مرت ساعة أو أكثر قليلًا قبل أن تدخل مارجريتا على فرانكو مكتبه بصحبة ليليان. قام من جلسته مرحبًا بهما، وقبل يد الراهبة وجبهتها قبل أن يدعوهما للجلوس. قام لورينزو هو الآخر مرحبًا بالراهبة، ولثم يدها سريعًا وإن ارتاب بعض الشيء من رفيقتها التي ارتدت هي الأخرى زي الراهبات الرمادي.

ـ هذه ليليان شميدت التي حدثك عنها الأب فرانشيسكو يا دون بتيجا.

تسارعت ضربات قلب الفتى بتيجا، ولمعت عيناه ونظره يتراوح بين

أبيه الذي لم تتغير تقاسيم وجهه، والفريسة الثمينة التي جاءتهم بقدميها طوعًا.

أخرجت مارجريتا وثيقتين، بالإضافة لظرف أصفر كبير من حقيبتها، والتفتت لمرافقتها:

ـ ليليان، اليوم ستغادرين جنوة بمعاونة السيد بتيجا.. من أجل سلامتكِ لن يعرف سواه وجهتكِ النهائية فقد حضرنا أوراقكِ كي تحتمل وصولكِ لبلدان مختلفة، وأعددنا في كل بلد منها من سيعاونكِ على بدء حياتكِ الجديدة هناك. سأعطيكِ جوازَي سفر، الأول مستخرج من الصليب الأحمر باسم الراهبة بياتريس، قمنا باستخراجه بصورتكِ وكل بياناتكِ الأخرى عدا اسمكِ.. والآخر جواز ألماني باسم ليليان بيكر تركه لكِ من عاونكِ على الوصول هنا.. الجواز الألماني عليه عدة تأشيرات دخول صالحة للأرجنتين وشيلي في أمريكا اللاتينية.. في هذا الظرف خطابات لأصدقائنا في البلاد المحتمل أن ترحلي إليها تطلب منهم معاونتكِ.

ارتبكت ليليان والأخت مارجريتا تعانقها وتضمها بشدة قبل أن تغادر، تاركةً إياها مع فرانكو وابنه. تركها الرجل وانتحى بابنه يتهامسان:

ـ هل أتصل ببرلين يا أبي؟

ـ لا يا لورينزو.. ستأخذها إلى السفينة كما سبق أن قلت لك.

علت الدهشة وجه الابن الذي ظن أن أباه بالتأكيد سيريد أن يفوز بالخمسين مليون ليرا التي شارفت على دخول خزائنهم.

ابتسم فرانكو وهو يقول لابنه:

ـ بعض أعمالنا لابد أن تكون من أجل الرب ليباركنا ويعفو عن خطايانا.

ثم التفت إلى ليليان التي كانت مشدوهة في كرسيها:

ـ الليلة ستبحرين إلى الإسكندرية.. إلى مصر يا أخت بياتريس.

القاهرة ـ مصر

17 فبراير 1964

كم الأخشاب التي ازدان بها المكان أعطاه رونقًا ومذاقًا ذكرني بالمطاعم الفاخرة في برلين. كانت هذه إحدى سمات القاهرة التي عشتها؛ الفخامة حين تحضر تتفوق على أصولها الأوربية، وكأن المصريين يضيفون إليها من رحيقهم الخاص. استرعى نظري وأنا أجلس في بار نادي المعادي كم الأناقة التي تميز المكان؛ تصميمه الذي يحاكي شكل قبو النبيذ، كتلك التي تبوأت أماكنها في قصور ألمانيا القيصرية. لم يهمل مصمم المكان تفصيلة واحدة، حتى شعرت بأن القائمين على البار يهتمون بأن تعبقه رائحة اختلاط أخشاب الصنوبر مع الكروم المعتقة. شعرت بألفة مع المكان وأنا أجلس على طاولتي أنتظر السيد كارل ديبوش كما اتفقنا. ربما حضرت قبل الموعد بنحو ساعة، بسبب حالة التوتر التي أصبحت تلازمني، فلم أرِد أن أغامر بالتأخر عليه. رشفت من كوب البيرة الذي أمامي وأنا أسترجع أحداث الرحلة التي بدأتها منذ أسبوعين، دون أن أعلم أنني سأنتهي في بلد كل ما كنت أعرفه عنه هو الأهرامات. أحاول أن أستوعب أنني ارتحلت من ألمانيا إلى سويسرا ثم إيطاليا لأعبر منها البحر إلى مصر. لو أن أحدًا حكى لي أنه قام بمثل هذا الكم من الترحال في مدة مماثلة، لاستوقفته مطالبة إياه بأن يقلل من حجم مبالغته، خاصة لو بدأ في سرد أحداث تماثل ما مررت به.

منذ وصلت لمصر، بدأت من جديد في أخذ أنفاسي، التي استمرت لاهثة حتى لحظة ترك لورينزو لي على سلم السفينة في چنوة. ابتسم وهو يعطي النادل حقيبتي الصغيرة، التي أعدتها الأخت مارجريتا، وقال بألمانية ركيكة:

ـ إلى اللقاء يا أخت بياتريس.

وثيقة سفر الصليب الأحمر تضافرت مع ثياب الراهبات، لتيسرا أموري وتفتحا الأبواب والقلوب لاستقبالي. أتذكر ضابط الجوازات في ميناء الإسكندرية، وهو يستجوب المسافر الذي كنت خلفه في الطابور عن سبب زيارته ومدة ومكان إقامته، حتى ظننت أنه سيعيده إلى السفينة ليعود من حيث أتى. ولكن حين تقدمت أنا إليه، أسرع بخفض نظره عن وجهي، وأمسك بالختم ليطبع في الوثيقة دون إطالة إذن دخولي إلى مصر، مشيرًا لي بترحاب مهذب بالمرور وقد علا وجهه تبجيل هادئ.

وقعت في غرام الإسكندرية منذ حطت قدماي على أرضها. مدينة ابتسامتها في نصاعة مبانيها البيضاء، المرصوصة كعقد ماسي تزين شواطئها التي تداعب ضربات الأمواج رمالها الناعمة. أحببتها لدرجة تفويتي ثلاثة أيام قبل أن أرتحل إلى القاهرة. منحتني هذه المدينة دفئًا احتجته بعدما تلاطمت أيامي وغدوت هاربة ومطاردة. لم تكن نظافتها أو جمال معمارها فقط أسباب ارتباطي بها، ولكن تلك الابتسامة الدائمة التي ارتسمت على وجوه أهلها، وشعوري بتقبلهم لي متى مشيت وسطهم، أنا التي أتيت من وطن يلوي أهله أعناقهم ليشخصوا في من يختلف عنهم قيد أنملة.

أما القاهرة، فقد أفقدتني توازني الذي كنت قد استعدت بعضه بضخامتها وزخمها وزحامها؛ وأنا من كنت أظن برلين مدينة مترامية الأطراف. منذ وطئت رصيف محطة القطار الكبيرة بالميدان، الذي يزينه تمثال رمسيس، طغت عليّ شخصية المدينة التي يبدو أنها ستصبح موطني لفترة ستطول في الأغلب. لم يكن بالعاصمة تلك البراءة التي عليها الإسكندرية التي تخيلتها ابنة صغرى مدللة للقاهرة، تنضح بنبضات لا تسكن ليلًا ولا نهارًا. في التاكسي من محطة القطار حتى وجهتي، تناقص الزخم حتى خمد تمامًا على طريق يساره مزارع مترامية ويمينه النيل العظيم يجري شريانًا وعلامة لبلد بأكمله. ما إن وصلنا المعادي، حتى سررت بحي عبارة عن حديقة كبيرة تظللها الأشجار، وفيما بينها بيوتات صغرت أو كبرت برع بناؤوها في حسن إخراجها.

مرة أخرى لعبت ملابس الراهبة دورها مع موظفي الفندق، الذين سارعوا في إسكاني غرفتي وتناوبوا على إبداء الرغبة في جعل إقامتي مريحة، ولبوا بنوع من التقديس أي طلب لي. بعدما استرحت من طول سفري أخرجت المظروف الذي أعطته لي مارجريتا، وأخرجت ما بداخله. وجدت خطابًا موجهًا منها لصديقتها الأم كولينا في الحضانة الألمانية، توصيها خيرًا بالأخت بياتريس. داخل المظروف كانت هناك قصاصة أخرى مطوية بها اسم كارل ديبوش ورقم تليفون، ومكتوب أسفل منهما أن أخطره بأنني من طرف «الأوديسا»، وأنه سيعاونني فيما قد يعوزني.

صحوت مبكرًا بالأمس، وبعد إفطاري طلبت من موظف الاستقبال أن يرشدني لمكان الحضانة الألمانية. كما تعودت في أيامي القليلة السابقة في هذا البلد، أصر المصري أن يرافقني بنفسه حيث أردت الذهاب. كان هذا هو كرم أخلاقهم الذي أذهلني، وإن استسغته وأحببت ما فيه من طيبة ورغبة في المساعدة. لكنني أصررت بعناد ألماني لا يلين أن أذهب وحدي، فاستسلم الرجل وقام برسم خريطة دقيقة

توصلني إلى المكان.

حين دلفت لشارع 12 أبطأت خطواتي بينما أقترب من الحضانة. لما ظهر سورها تواريت خلف شجرة باسقة مالت غصونها من خارج السور، مظللة حوش الحديقة التي علت فيها أصوات فتيات صغيرات يجرين يمينًا ويسارًا وسط نداءات مستمرة من الراهبات، وهن يحاولن أن يجمعنهن في طوابير تمهيدًا لدخولهن الفصول.

استمر تسمري في مكاني وأنا أشاهد الراهبات يجمعن الفتيات، وسيطر على ذهني سؤال دون غيره:

ـ هل هذا ما أريد أن أكونه؟

تذكرت ما حكته لي الأخت مارجريتا؛ شعرت حين ترهبنت أنها كانت تلبي نداء. فكرت أن رهبنتي لم تكن إلا وسيلة تنكر وهروب، وأدركت أنني لا أريد الاستمرار في ذلك الدور الذي فرضته علي الظروف. الارتياح الذي أصبح يملؤني منذ وصلت هذا البلد شجعني أن أعود إنسانة غير خائفة من القادم ولا متوترة من مطارديني، الذين لا تستطيع أياديهم أن تطولني في وطن يعاديهم ويحمي أمثالي ممن يريدون التمثيل بهم. حاولت أن أجد بنفسي إقبالًا على حياة أكرسها من أجل الرب دون غيره، فلم أسمع ذلك النداء الذي تلقته مارجريتا. طالت وقفتي قبل أن أقرر أن عليّ البدء من جديد، وأن القدر ألقى بي في هذا المكان لأبدأ من جديد دون خوف، ولأعيش مثلما أريد. استدرت من خلف الشجرة حيث كنت أراقب الراهبات، وأسرعت الخطى إلى الفندق ليفاجأ بي موظف الاستقبال عائدة وهو من ظن أنني سأمضي اليوم مع قريناتي.

اتصلت بالرقم الموجود على القصاصة، فرد عليّ متحدث بالألمانية:

ـ أنا ليليان بيكر.

ـ من؟

ـ ليليان بيكر.

ثم بعد تردد قلت:

ـ الأوديسا أعطتني رقمك.

باقتضاب قال:

ـ قابليني في بار نادي المعادي غدًا، في الثامنة مساء.. سأترك اسمك على الباب.

أمضيت اليوم في غرفتي، ومن الحقيبة الصغيرة أخرجت الثوب الأزرق الذي رافقني مع ثوب آخر طوال رحلتي. تعمدت أن أضع ملابس الراهبات في دولاب الغرفة، منتوية أن أنساها حين أغادر الفندق. في السادسة والنصف كنت جاهزة للمغادرة إلى النادي، الذي حصلت من صديقي الفندقي على خريطة دقيقة توصلني إليه. تطلعت إلى نفسي في المرآة فسعدت بجسمي الذي احتفظ بنضارته رغم الأربعين عامًا التي مضت عليه في الدنيا. مشطت شعري الأشقر مرة أخرى لينسدل على جانبي وجهي، الذي أسعدني هو الآخر كونه ما زال محتفظًا بجمال لطالما أعجب الرجال. خرجت من حجرتي أشعر بأنني أنثى تريد أن تحيا وتسعد، وألا تقلق من جديد؛ خرجت مقبلة على بداية صرت أتطلع إليها.

قطع حبل أفكاري صوت من لم أشعر بوقوفه جواري:

ـ ألمانية؟

نظرت إليه لأجد رجلًا خمسينيًّا، عيناه خضراوان وجسده مفتول بعضلات تعمد إظهارها من خلال قميص قصير الأكمام، يسمح شتاء مصر الدافئ بارتدائه. اندهشت ولم أدرِ إن كان هو من عليَّ لقاؤه؛ فتحفظت في ردي:

ـ ربما..

ـ آسف على التطفل، ولكن دعيني أشرح لكِ.. هل ترين أصدقائي الذين يجلسون على المائدة في الركن هناك؟

نظرت فوجدت مائدة عليها ثلاثة رجال، ابتسموا حين استدرت وجهتهم ورفعوا كئوسهم محيين.

ـ لقد راهنتهم على شيئين يخصانكِ.

شجعته ابتسامة الحيرة التي انسحبت على وجهي.

ـ الرهان الأول أنكِ ألمانية، وأظن أني كسبته.. هل تريدين معرفة الرهان الثاني؟

لم ينتظر إجابتي:

ـ الرهان الثاني أنكِ ستقبلين دعوتي على العشاء غدًا.. سأنتظركِ أمام باب النادي في تمام الثامنة.

وكما فاجأني ظهوره باغتتني استدارته دون انتظار الرد، ليتوجه حيث قبع أصدقاؤه المبتسمون على المائدة التي بركن البار.

ظننته عاد من جديد حين أحسست بربتة على كتفي:

- ليليان بيكر؟ أنا كارل ديبوش.

نظرت لمحدثي فدهشت أيما دهشة، واستمررت شاخصة في وجهه قبل أن أنطق:

ـ أنت!! أنت الملاك!!

القاهرة ـ مصر

22 فبراير 1964

بدت حوائط الغرفة الرمادية كأنها تضيق عليّ وأنا أجلس في منتصفها. استمر سعالي دون توقف حتى شعرت برئتيّ ترتجان في مكانهما من وطأته. الكرسي الحديدي الذي جلست عليه جعلني أتململ في جلستي، أحاول دون جدوى أن أصل لوضع يريحني من الآلام التي تجمعت عليّ ما بين ظهري وصدري وساقيّ. عزمت على أن أقوم من مكاني وأتلمس مخرجًا من الكآبة المحيطة بي، ولكن لم يكن بي قوة أو بعض منها كي أفعل ذلك.

ـ ليليان بيكر؛ سيراكِ الدكتور هانز إيزل الآن.

لم أدرِ من أين أتى الصوت، لكنني وجدتني أقوم وأتوجه صوب الباب الذي توسط الحائط المقابل. تعالى صوت أزيز الباب المتهالك حين هممت بفتحه، وأظنه استجمع ما تركه له الزمن من بقايا قواه ليقاوم رغبتي في الولوج من خلاله.

وجدت الطبيب واقفًا في انتظاري على الناحية الأخرى من الباب. استرعاني جمود عينيه ونظرته النارية التي شعرت بها وكأنها تخترقني. نوبة سعال أخرى تملكتني وأنا أحاول كتمها بيديّ، اللتين تلوَّنتا بنقاط حمراء متفرقة أفرزهما فمي.

ـ أترين يا ليليان؟! أترين الدماء التي تسعلينها؟ أنتِ مصابة بالسل؛ لا بد أن أحقنكِ.. لا بد أن نخلص من الضعف والمرض.. لا بد أن نخلص العالم من حِمل الضعفاء والمرضى؛ ألا تتفقين معي؟!

رفع الدكتور إيزل حقنته وخطا نحوي:

ـ ما إن أحقنكِ، لن تشعري بشيء من بعدها.. أعدكِ يا ليليان.

قمت فزعة مرتعشة والعرق يتصبب من جسدي، من غفوة العصر التي لم تطل بفعل الكابوس، الذي أصبح يلازمني منذ قابلت كارل ديبوش.

ـ أنا لا أحب لقب «الملاك».. أظنكِ تعرفين أن من أطلقوه عليّ لم يكونوا حسني النوايا نحوي.. أسموني الملاك وصوروني كشيطان.

من رده عليّ ذلك اليوم في بار النادي، تراءى لي أنه مخلوط بصرامة مع كثير من عتاب.

ـ أنا آسفة؛ فقط تذكرت صورتك في مقال قرأته بعنوان الملاك.

الكابوس الذي لازمني منذ ذلك اليوم أثناء نومي صحبه تذكري كلمة بكلمة للحوار الذي دار بيني وبين كارل ديبوش، أو بالأصح الدكتور هانز كيرت إيزل.

بعد أن اعتذرت له أردت أن ألطف الأجواء التي توترت فعدت:

ـ ولكنني أعرفك يا دكتور إيزل.. ألا تتذكرني؟ أنا ليليان مساعدة السيد أيخمان.. رأيتك مرارًا حين كنت تأتي لزيارته.

أظنه لم يسمع ما قلت، إذ مضى في حديثه كما لو كان مسجلًا:

ـ لقد حوكمت على اتهامات باطلة.. هل يعقل أن أكون قد قتلت ثلاثمائة مريض سل؟! هل يعقل هذا وأنا أمتهن الطب أن أحقنهم بالسموم؟! أنا من أداويهم لا من أقتلهم!! سنوات سجني ظلم كلها.. أعطيكِ الدليل: في البداية حكموا عليّ بالإعدام، ثم خففوا الحكم مرة بعد مرة.. ظلوا يطاردونني حتى تركت الوطن هاربًا من جورهم.. أصبحت طريدًا لما وجدت أنهم يريدون أن يجروني من جديد إلى الدفاع عن نفسي ضد افتراءات.. ماذا يريدون مني؟ ألم تكفهم السنوات التي قضيتها مسجونًا؟! أقول لكِ: هم يريدون موتي؛ لن يرتاحوا سوى بموتي، وليس موتة عادية.. بل موتة مهينة.

للحق، لم أرَ من الدكتور إيزل إلا كل معاونة وطيبة قلب. ساعدني طوال الأسبوع الماضي في الحصول على شقة الدور الأرضي، التي أصبحت أقطنها في شارع 9 بالمعادي، على بعد خطوات من محطة القطار. غرفة وصالة أثاثها متوسط الحالة، لكن إيجارها يناسب وظيفتي الجديدة كمساعدة للطبيب كارل ديبوش، في عيادته التي هي أيضًا منزله. المذهل أن القدر سخر من ديبوش، بأن أسكنه في مواجهة معبد يهودي فخيم يتوسط شارع عرابي بالمعادي.

يوميًّا كان يعيد عليّ:

ـ وظيفتكِ عندي مؤقتة، حتى نجد لكِ وظيفة ملائمة. سأسعى لأن تكوني مدرسة بالمدرسة الألمانية أو بالمركز الثقافي. لدينا أصدقاء كثيرون هنا. من المؤكد أن وجودكِ معي سيلفت الأنظار، لذا لن نطيل أمده.

قمت من على أريكة صالة شقتي وقد تخلصت من آثار الكابوس، الذي قضى على محاولتي للنوم قليلًا قبل حلول المساء. وقفت للحظات أنظم تفكيري وأرتب ما يتوجب عليَّ عمله. أخرجت أدوات المائدة وأعددتها لاستقبال شخصين: ضيفي وأنا. نظرت نظرة سريعة على الديك الذي في الفرن وقد أحاطت به البطاطس والبصل وكثير من البنجر، كما أوصتني أمي حين علمتني طبخ ديك عيد الميلاد.

ـ اتركي الديك وحواشيه أطول مدة ممكنة على نار هادئة في الفرن يا ليليان.

حين طلب مني أن أعد طبخة ألمانية تقليدية، وجدت أن وصفة أمي لديك عيد الميلاد هي الوحيدة التي أتقنها. منذ دعاني على العشاء وأنا أخرج بصحبة حاتم السيوفي يوميًّا. لا أدري كيف أسرني، ولكنني ابتلعت طعمه وانتظرته كما اقترح اليوم التالي أمام باب النادي في تمام الثامنة. أظن أن أكثر ما أعجبني فيه أنه مباشر بدرجة تكاد تكون مزعجة؛ لا مواربة ولا تلو في أسلوبه. أذهلني بعد عشائنا الأول وأنا أنزل من سيارته حين قال:

ـ أنتِ مغامرة.. استمتعي بي أنا الآخر كمغامرة وستنتهي.. أجمل ما في المغامرات نهاياتها السريعة يا ليليان.

اشتريت ثوبًا جديدًا بمناسبة زيارته اليوم. لم أكن بسذاجة أن أتعلق بذي العينين الخضراوين، صاحب العضلات المفتولة، ولكن كان بي من الهشاشة أن أريد من يلفني ويضمني ولو لوهلة قصيرة. أمعنت النظر في الفستان ذي الحمرة القانية وهو يرشد الناظر لتضاريس جسدي. اشتريته من حائك مصري استسمحني في نصف ساعة كي يعيد ضبطه على مقاسي. أظنه قصره شبرًا أو أكثر، كي يتأكد من كشف ركبتي وإزالة الستار عن أعلى ساقي. تحسست ردائي وتفحصت وجهي فأعجبت بما شاهدت وما بدا من أنوثة طال تواريها. المرأة التي بداخلي تسيدت الموقف، وأطاحت بكل مشاعر الغربة وإنهاك الهروب، اللذين ظلا يلازماني طوال فترة الترحال. الليلة على ما أظن سيفوز حاتم برهان ثالث من شلة أصدقائه، ولم يكن بي مانع طالما وسعني حضنه واستطعت أن أركن على صدره وأنام على صوت دقات قلبه.

حين دق جرس الباب معلنًا قدومه، عاينت المكان سريعًا قبل أن أفتح لأتأكد أن كل شيء كما أردته أن يكون. فاجأني حاتم بوردة حمراء قدمها لي قبل أن يقبلني قبلة خفيفة على خدي، على طريق دخوله لشقتي.

أتينا على نصف الديك وزجاجتي نبيذ مصري حملهما ضيفي معه. لم تنقطع حواراتنا طوال العشاء وهو على ما دأب عليه منذ تعرف عليّ، يحاول أن يكتشف ما جاء بي لبلده:

ـ ليليان، تركتِ ألمانيا واخترتِ القاهرة كي تعملي معاونة لديبوش؟ غير معقولة هذه القصة.. بالله عليكِ ماذا أتى بكِ لمصر؟ دعيني أخبركِ أن نصف المصريين يودون لو يقيمون في وطنك.. ارتحلتِ عكس الاتجاه يا عزيزتي.

أضحك وأحاول أن أنحى بالحديث وجهة أخرى:

ـ جئت خصيصًا كي يفوز حاتم السيوفي برهانه.. لا لا، بل برهانيه الاثنين مع أصدقائه.

يلح ضاحكًا فيمازحني بمزيد من التساؤلات:

ـ قولي لي، هاربة من العدالة الألمانية؟ لن أبلغ عنكِ، ولكن يجب أن أعرف كي أستطيع الدفاع عن نفسي إن كنتِ معتادة الإجرام.

وجهه يضيء بقهقهته العالية، وعيناه الخضراوان يزداد جذبهما إليّ. أقوم من مكاني وأمد يديّ إليه، فيتلقاهما ويقوم يتبعني لغرفة نومي.

ـ خذني في حضنك يا حاتم.

لا أدري إن كنت قلتها بصوت عالٍ أم أنه استجاب لأنين الأنثى الذي علا بداخلي؟ ضمني بقوة وأنا مغمضة العينين، أحلق في ذهني بعيدًا وأعزل نفسي عن كل ما مررت به. أذوب بين ذراعيه وأمتلئ بدفء عروقه النابضة وأنفاسه اللاهثة، التي تلاحقت وهو يلثم فمي بقبلات رقيقة متتالية. سأعطيه ما يريد، في مقابل دفء وأمان حضنه ولو مؤقتًا.

ـ خذني يا حاتم.. خذني.. أريد أن أفوز بما راهنت عليه اليوم.

القاهرة ـ مصر

3 مارس 1964

الثقل والشد صارا يلازمان ثدييَّ ليل نهار، حتى شعرت بهما يتمزقان ومعهما إحساس إرهاق مستمر لا يفارقني. منذ يومين أستفيق صباحًا بشعور فظيع بالغثيان. أقاوم في ذهني ما تشير إليه تلك الأعراض، وأعزوها لأسباب لا تثير خشيتي. أفسر تغيُّراتي المزاجية بأنها ردة فعل متوقعة لنذالة السيد حاتم، الذي وضح لي أن مغامرته قصيرة الأمد. أمس، كان آخر لقاء لنا على الغداء، كدت ألطمه على وجهه حين اقترح:

ـ ليليان، أود أن أعرفك على أحد أصدقائي.. أظنكِ ستقضين وقتًا ممتعًا معه.

لم أصدق وقاحة عرضه، ودمعت من فرط المهانة التي أصابت في مقتل ما تبقى من كرامتي. لم أكن درامية ولا أمثل دورًا حين قفزت واقفة لأتركه بينما أقول:

ـ لا أريد معرفتكَ ولا معرفة أصدقائك المنحطين.

رغم الأحاسيس التي صارت تتلاطمني، ألوم نفسي بعض الشيء على انفعالي على حاتم، فلعله كان يمازحني بطريقته التي كثيرًا ما لم أفهمها. ثم أتفكر في الأمر، فأجد أن الأرجح أنه كان يعني ما قاله، إنه ينظر لي نظرة الذكر الذي أصاب مبتغاه ثم أراد أن يجامل ذكرًا آخر بإهدائه دمية مستعملة، بعدما استوفى منها غرضه.

جلست إلى مكتبي في استقبال عيادة الدكتور ديبوش أنتظر وصول أول مواعيد اليوم. عزمت في آخر اليوم أن أتشاور مع الطبيب في الأعراض التي أعاني منها. لعلي أجلت استشارتي له أملًا في وصول زائرتي الشهرية بسلام، قبل أن يؤكد لي كارل ما تعلمه الأنثى دون حاجة لأعراض.

كعادتها كل صباح، ازدحمت صالة الاستقبال بالمرضى، وكالعادة أيضًا بدأت النميمة ما بين الجلوس. العجيب أن موضوعهم المفضل لم يكن إلا من ينتظرون لقاءه. أغلب الزبائن، إن لم يكن جميعهم، كانوا من الألمان والسويسريين سكان حي المعادي. صارت تسليتي المفضلة

أثناء تأديتي وظيفتي الرتيبة هي الاستماع لحواراتهم التي

لا تنتهي، عن معية كارل ديبوش وحقيقة شخصه، وعما أتى به لمصر.

ما زاد من اهتمامهم به هو ابتعاده عن مجتمعهم، وعدم انخراطه هو أو زوجته في أنشطتهم. الدور العلوي من الڤيلا سكن لأسرته، والعيادة في الدور السفلي، ولا يراهم أحد في مكان آخر. والمسموح لهم بزيارتهم قلة من ألمان المعادي لا تتعدى أصابع اليد الواحدة.

ـ يقولون إنه فقد ترخيص مزاولته في ألمانيا، لذلك أتى هنا.. هذا ما تؤكده زوجة الطبيب المصري الذي في شارع 9.

هكذا بدأت السيدة هسلر حديثها مع صديقتها التي رافقتها.

ـ كلام فارغ.. زوجي الضابط المصري يؤكد أنه عالم كبير.. هو هنا لإجراء تجارب علمية مهمة.. هذه العيادة من باب التسلية لا أكثر.

في ركن آخر من الغرفة تبدأ السيدة السويسرية العجوز في التحدث بما تظنه صوتًا خفيضًا مع من تجاورها، لكن يصلني كل ما تنبس به بوضوح:

ـ لقد تقدمت جارتهم بشكوى ضدهم في المستشفى البيطري.. تصوري أنها وجدت جثة كلب صغير ملقاة في جانب حديقتهم!

ترد عليها صديقتها العجوز:

ـ أنا متأكدة من أن جاري الذي انتقل إلى الدور الأرضي في عمارتنا جاسوس إسرائيلي.. أسمع دقاته طوال الليل على جهاز لاسلكي.. أظنه جاء هنا لاصطياد الطبيب.

ثم تستطرد:

ـ لقد سمعت أنه من مجرمي الحرب العالمية، وقد فر إلى هنا.

ـ الحرب العالمية انتهت منذ عشرين عامًا.. توقفي عن التخريف.

تصمت صديقتها قبل أن تعود العجوز العالمة ببواطن الأمور:

ـ هو عالم صواريخ، وقد جلبته الحكومة المصرية لمعاونتها.

تنتهز صديقتها الفرصة لتسخر منها فتعلو ضحكتها:

ـ عالم صواريخ! وأنتِ آتية هنا ليطلقك في الفضاء!

في ركن الغرفة جلس الرجل النمساوي وزوجته، ونظرهما يجول باللوحات المعلقة على الحائط. كسر الرجل الصمت وقد تسمرت عيناه على لوحة على الحائط المقابل:

ـ ديبوش في الأصل فنان.. أظنه مضطرًا لامتهان الطب كي يعيل أسرته.

ترد عليه زوجته:

ـ هو فنان فعلًا.. هو من عالج أذنيك بعدما زرنا أغلب أطباء البلد.. فنان في الطب.

أقفلت أذنيّ عن الحوارات الدائرة حولي وأخذت أفكر في حالي. هاربة بل مطاردة في بلاد غريبة، لا أملك قرار نفسي. والآن هذا الزائر الذي قرر في الأغلب أن يسكن أحشائي دون دعوة ولا رغبة مني. لم أكن يومًا ممن يتحسرون على حالهم، ولكن وضعي بالتأكيد صار مزريًا، بل لو أن هناك وصفًا أسوأ لوصفته به. أحاول أن أستجمع قوتي الداخلية، التي طالما أثبت نفسي عليها، لأبعد عن ذهني الأفكار السوداء التي تتملكني، كيلا يعم السواد دواخلي.

استرعتني أطراف حديث دائر بين السويسرية العجوز، إذ وصلت لمسامعي كلمات أظنها عني:

ـ هي أجمل من زوجته.. استدعى عشيقته من ألمانيا!

لم أدرِ إن كان عليّ أن أبتسم بينما أفوز بمقارنة في الجمال الأنثوي، أم أبتئس لكوني رفيقة أتوا بها كمحظية طريد مثلها.

وهكذا لا تنتهي الأحاديث ولا التوقعات، ولا محاولة معرفة لماذا يقرر طبيب ألماني ماهر أن يشد الرحال لمصر، وأن يختار

ألا يمارس ما يبرع فيه في وطنه. حتى الراهبات اللوائي اخترنه طبيبًا لم يتركنه دون أن يدلين بدلوهن، فراهبات الكنيسة الألمانية بالمعادي، المنتظرات دورهن، يقسمن أنه كاثوليكي ملتزم لا يفوته قداس الأحد. حين أسمع ذلك أتذكر زيارة راهبة كنيسة العائلة المقدسة وشكواها لمرافقتها بأن الطبيب في الأغلب مارق لا دين له، إذ لم يزرهم ولو لمرة. ومع هذا لم يمنعها مروقه أن تختاره طبيبًا! جميعهم استمروا في المجيء لعيادته، بل إنهم برغم شكوكهم كانوا يصفون الطبيب

الألماني لمن يهمهم، حتى استحوذ فيما علمت على أغلب سكان الضاحية الجنوبية من الأجانب وكثير من سكانها المصريين.

سمعت صوت قدمي كارل نازلًا الدرج، وسرعان ما دلف لداخل مكتبه، فتبعته كالمعتاد أستعرض معه قائمة المنتظرين.

ـ ابدئي بالسيدة هسلر.

استدرت لأخرج، فقال لي باقتضابه المعهود:

ـ أراكِ بعد العيادة.. وجدت لكِ وظيفة.

حين خرجت وجدت عم عبده الساعي واقفًا ينتظرني أمام مكتبي:

ـ للدكتور دبوس.

عاجلته بنظرة غاضبة، وأنا أصحح له نطقه للمرة الألف:

ـ دكتور ديبوش!

ابتسم بخبث فكشف عن أسنانه البيضاء التي أنارت وجهه الأسمر. تقاطيع وجهه، برغم دكنته، جميلة منمقة ما عدا أنف قرر أن يخرج عن المألوف فطغى بزنجيته على مسطحات لم تكن له. جلبابه الأبيض نظيف كالعادة، ورائحة المسك الذي يبدو أنه يستحم به ملأت خياشيمي. أشار بذقنه إلى الظرف البريدي الأصفر الذي يحمله، وعاد من جديد:

ـ للدكتور دبوس.

كدت أصحح له نطقه من جديد، ولكن ابتسامته أظهرت أن هذا ما يبغيه لإطالة أمد دعابته اليومية. أومأت له بوجهي لكي يدخل لمكتب الطبيب بما يحمله، وقد عزمت ألا أسايره في استفزازه الطفولي.

بتوءدة خطا نحو غرفة المكتب وفتح الباب بعد أن طرقه بخفة، لم ينتظر إجابة ليدخل. أوصد الباب خلفه فبدا خياله من خلف زجاج الباب المصنفر وهو واقف أمام كارل، الذي أظنه قام من مكتبه. استغربت أن خيال ديبوش ابتعد ناحية النافذة البعيدة، ولم يقترب لأخذ ما حمله عم عبده.

لحظات ثم أضاء المكان وميض قوي من داخل غرفة الطبيب، تزامن

مع دوي عالٍ كاد يسقطني من فوق الكرسي. لم أسمع مثل هذا الصوت منذ أيام الحرب، حين تهاوت فوق رؤوسنا في برلين قنابل الحلفاء تنفجر على مقربة منا الواحدة تلو الأخرى. تبع الانفجار صوت تأوه طويل من وسط زجاج الباب، الذي تفتت ليتلو ذلك صوت ارتطام جسد بالأرض.

برلين ـ ألمانيا

16 مارس 1992

جلس هيلموت إلى مكتبه، يراجع أوراق القضايا المرصوصة أمامه. نوعية جديدة من القضايا غزت المكتب منذ توحدت ألمانيا من جديد في أكتوبر الماضي. ذاع صيته بعد أن انتهى بنجاح من لم شمل عائلتين تشتتتا وقت الانقسام. بعد أن تكلمت الصحافة عن عمله فيما يخص مثل هذه الحالات، زاد طابور مريدي خدماته من ذلك النوع. رفع من أعلى رصة الملفات ذلك الملف الذي كان بصدده، وبدأ يقرأ ما به بادئًا من جديد من أول ورقة. أتاه به مساعده هذا الصباح بعد أن استلمه من الإدارة التي تحقق في جرائم الشرطة السرية لألمانيا الشرقية، أو كما عُرفت، «الستازي». الطلب الذي تقدم به نيابة عن موكلته استغرق أكثر من شهرين حتى حاز على موافقة الإفصاح اللازمة للحصول على هذا الملف السري.

ملف رقم116548 .

اسم المتهم: سيپ بيرجين.

التهمة: معارضة النظام والانضمام لتنظيم مناهض.

قلب هيلموت في الأوراق حتى وصل لأول مستند في الملف.

طلب موافقة على ضبط متهم:

السيد رئيس الجهاز..

وردت إلينا عدة بلاغات تخص المدعو سيپ بيرجين ونشاطاته المتنوعة. وقد دأب المشار إليه على انتقاد الحكومة والتنديد بها، وذلك من خلال جلساته المتتالية مع عدة أفراد مختلفين تقدم عدد منهم ببلاغات تخص سلوكه. وبمتابعة الحالة تبين لنا صحة هذه البلاغات وأن المذكور يكثر من السخرية والتهكم على أداء الحكومة وزعمائها، في مناسبات متفرقة. ولما لمثل هذا السلوك من تأثير سلبي على السلام المجتمعي الذي ترنو إليه ألمانيا الشرقية، فإننا نرى أن ترك أمثاله يعيشون في أوساطهم سيسبب ضررًا بالغًا. كما أننا نعتقد أنه لا يعمل وحده بالتأكيد، بل كجزء من منظومة هدفها الأساسي زعزعة الثقة في النظام وإثارة القلاقل في الوطن. من واقع مراقبتنا أيضًا وجدنا

أن المذكور متزوج من إحدى رعايا ألمانيا الغربية، وعلى هذا نكاد نجزم أنه على اتصال بالأعداء، وأن ما يقوم به ما هو إلا جزء من مخطط لئيم شرير للعبث بمقدرات الوطن.

بناء على ما تقدم، نتقدم بطلبنا هذا بالقبض عليه وعلى زوجته العميلة للتحقيق معهما، والأهم للكشف عن الشبكة التي يديرانها من أجل تحقيق أغراضهم الدنيئة.

التوقيع

(تم كشطه)

التاريخ: 18 ديسمبر 1963.

(تمت الموافقة على الطلب في نفس تاريخ تقديمه).

أعاد هيلموت المستند إلى مكانه، وسحب الذي تلاه.

محضر قبض على متهم:

في يوم الأربعاء الموافق 18 ديسمبر 1963 تم القبض على كل من:

1. سيپ بيرجين.

2. هيلدا شميدت.

وذلك في تمام الساعة العاشرة مساءً وبناء على موافقة مسبقة من رئيس الجهاز. وقد تم إيداع كل منهما في غرفة احتجاز منفصلة بالمقر.

ملحوظة: تم تسليم طفلة المذكورين أعلاه إلى جهاز رعاية الأسرة، لإيداعها إحدى دور رعاية الأطفال.

المستند التالي شد انتباه المحامي.

ملخص التحقيق مع متهم:

اسم المتهم: سيپ بيرجين.

التاريخ: 28 يناير1964 .

على مدار الشهر الماضي استمرت التحقيقات مع المتهم. وقد تم استخدام وسائل الاستجواب التقليدية معه. لم يدلِ المذكور حتى الآن بأي معلومات تخص الخلية التي يترأسها، ولا على أي من أعوانه. المتهم مصر على إنكار اقترافه أيًا من التهم الثابتة عليه، ومستمر في رفض التعاون مع جهات التحقيق. تم العرض عليه في عدة مناسبات فرص الرأفة به مقابل تسليمه لأعوانه، ولكنه استمر في رفض الاعتراف أو تسليم الخلية. بناء على ما تقدم، قمنا نحن المحققين معه بالاتصال بالقسم الطبي بالجهاز، الذي أبدى تعاونًا وأخطرنا بأنه سيمدنا غدًا أو بعد غد بترياق يسهل اعترافات المتهم.

ثم تلا ذلك مستند مماثل.

ملخص التحقيق مع متهم:

اسم المتهم: هيلدا شميدت.

التاريخ: 28 يناير1964 .

تم إيداع المتهمة منذ احتجازها في زنزانة مشتركة مع إحدى عميلاتنا. وقد استطاعت العميلة الحوز على ثقة المذكورة وأصبحتا صديقتين. لم تُدلِ هيلدا بأي اعترافات، وتركز كلامها على ذعرها فيما يخص مصير ابنتها وزوجها. حاولت رفيقتها في الزنزانة كثيرًا أن تحثها على الاعتراف من أجل الخلاص من الموقف وعودة ابنتها إليها، ولكن المذكورة استمرت في الإنكار ورفض الاتهامات الموجهة إليها. تكرر موقفها اليوم أثناء تحقيقاتنا معها وتمحورت كل إجاباتها على الأسئلة الموجهة إليها على محاولة استقراء مصير ابنتها والدفاع عن زوجها، الذي تدعي براءته وعدم علمها بأي نشاطات تخصه تناهض النظام.

بناء على ما سبق، وحيث إن هيلدا شميدت مواطنة من ألمانيا الغربية، نوصي بالاتصال بحكومتها وبدء التفاوض معها على مقابل الإفراج عنها.

اتسعت حدقتا هيلموت وهو يقرأ الورقة التي كانت خلف ملخص التحقيق مع هيلدا:

إخطار من جهاز رعاية الأسرة:

نخطر سيادتكم بموجب هذا بأن السيدة زوجة (تم كشط الاسم) عضو المكتب المركزي للحزب قد زارت دار رعاية الأطفال اليوم، واختارت الطفلة جريتا ابنة المتهم سيپ بيرجين كي تضمها لأسرتها الصغيرة

وتتكرم برعايتها وتربيتها.

التاريخ : 29 يناير 1964.

ملخص التحقيق مع متهم:

اسم المتهم: سيپ بيرجين.

التاريخ: 30 يناير1964 .

تم إحضار المتهم من زنزانته في تمام الساعة العاشرة صباحًا. طوال الليلة الماضية تم إنارة الزنزانة المحتجز بها المذكور على أعلى درجات الإضاءة. حين حضر المتهم، كان في حالة إعياء شديدة. بعد أن عاينه الطبيب وبعد التشاور مع المحققين تم الاتفاق على

ألا مانع من إعطائه ترياق الاعتراف، الذي أرسله إلينا القسم الطبي. حين تم حقن المتهم أصابته نوبة تشبه حالات الصرع تبعها إغماءة. عند فحصه أشار الطبيب إلى أن المذكور دخل في غيبوبة، وأن وظائف المخ متأثرة بشدة والقلب يعاني من حالة هبوط. تم نقل المذكور على الفور لعيادة الجهاز، وبعد حوالي ساعة أخطرنا الطبيب بموت المتهم. بناء على ذلك تحررت شهادة الوفاة المرفقة والتي تشير إلى أن سبب الوفاة هبوط في القلب نتيجة حالة مرضية سابقة للقبض على المتهم. تم الأمر بدفنه في مقابر المجهولين ببرلين.

الورقة الأخيرة في الملف كانت تقريرًا آخر.

ملخص المفاوضات مع حكومة الغرب بخصوص متهمة:

فيما يخص المحتجزة هيلدا شميدت، التي تحمل هوية ألمانيا الغربية، فقد تم عمل ثلاث جولات تفاوضية، وفيما يلي ملخص ما تم التوصل إليه:

1. كان العرض الأول تبرعًا بمبلغ 10000 مارك ألماني غربي، وتم رفضه على الفور.

2. بعد الجولات التفاوضية المتتالية وصل مبلغ التبرع إلى 25000 مارك ألماني غربي.

3. لا تشتمل مفاوضاتنا على أي ذكر أو تنازل فيما يخص زوج أو ابنة المذكورة، استنادًا لكونهما من رعايا ألمانية الشرقية وأنهما على ذلك

ليسا موضع تفاوض.

مما تقدم، نرى الموافقة على التبرع الذي تم الاتفاق عليه، على أن يقوم الجهاز بالإفراج عن المتهمة هيلدا شميدت، كبادرة حسن نية من جهة حكومتنا، دون إسقاط الاتهامات مع إقرارها بعدم محاولة دخول ألمانيا الشرقية من جديد.

كما نرى التمسك حاليًا ومستقبلًا بأن ما يخص زوجها وابنتها شئون داخلية للدولة، وعليه رفض أي مفاوضات بشأنهما واعتبار أي محاولة من هذا النوع تدخلًا في الشأن الداخلي لمواطني ألمانيا الشرقية.

ملحوظة: حال الموافقة على ما بعاليه، يتم تسليم المذكورة هيلدا شميدت لحكومتها مطلع الأسبوع القادم، بعد التأكد من تحويل التبرع المتفق عليه.

تحريرًا في: 10 فبراير 1964.

برلين ـ ألمانيا

15 فبراير 1987

ـ ماما.. ماما..

التفتُ أنظر إلى طفلتي المذعورة تناديني صارخة. حاولت أن أُفلت من قبضة الرجلين اللذين يجرانني نحو باب البيت. رأيت وجه جريتا وقد بللته الدموع، وهي مستمرة في النداء عليّ. جربت الإفلات من جديد فاشتدت غلظة القابضين عليّ. استمرت المسافات تتباعد بيننا، وحطت يد أحد الممسكين بي على خلفية رقبتي، تمنعني من معاودة النظر إلى صغيرتي.

ربع قرن مر بي ولا أزال أستيقظ يوميًّا على هذا الكابوس. أصحو على رنين نداء جريتا يصم أُذناي. أفيق وصدى ضربات قلبي يرن في حلقي والدموع تبلل وجهي. أتلمس بيدي فراشي باحثة عن الصغيرة آملة أن أجدها إلى جواري.

مددت يدي إلى المنضدة المجاورة لسريري، فأمسكت بدفتر مذكراتي وسحبت القلم وبدأت أدون:

«صباح الخير يا حبيبتي جريتا.. صباح الخير وكل عام وأنتِ بخير.. اليوم عيد ميلادكِ الخامس والعشرون.. أتصور كم أنتِ جميلة وأتشوق ليوم لقائنا الذي لا أشك أنه أصبح قريبًا.. اليوم أشعر أنني سأنجح في العبور إليكِ.. سنلتقي يا جريتا.. سنلتقي.. واثقة من قرب لقائنا يا حبيبة».

سأبكر البدء هذا النهار في رحلتي اليومية. ارتديت ملابسي في عجالة ولم أنسَ أن آخذ معي الهدية التي حضرتها لابنتي بمناسبة عيد ميلادها. كان الجو غيمًا والأمطار لا تكف عن الهطول طوال طريقي إلى نقطة العبور «تشارلي» بحائط برلين.

خمسة وعشرون عامًا لم أكِلّ فيها يومًا عن الذهاب إلى مشواري اليومي. كيف أملّ أو أيأس، وقد تركت خلف السور العالي قطعة مني لا تعويض لها.

طالعني الحائط الضخم عن بعد. كلما اقتربت تبدت لي رسومات الجرافيتي التي غزته عبر السنين. رسومات تحتج على وجوده وتزأر بوجوبية إزالته. تذكرت يوم عبرته أول مرة، وهو بعد سلك شائك يسارع

جنود الشرق في مده. يومها كان المشاهد لعبوري يظنني قد جُننت وأنا أعبر عكس الاتجاه من الغرب إلى الشرق. قليل من عبروا في الاتجاه الذي اخترته، إذ أدرك الأكثرية أن الوجهة الغربية هي الفائزة. ذهب ذهني لشكل السور من الناحية الأخرى كما رأيته في الصور. سور بغيض كريه لا لون له، يحرسه بضراوة جنود مكفهرون. تراءت لي جثث من فشلوا في محاولات الهروب وقد ارتمت على بعد أمتار من حرية تمنوها ولم يدركوها. استمررت في النظر نحو ما يمثل فاصلًا، لا أستطيع اجتيازه رغم محاولاتي اليومية، بيني وبين من أتوق إلى حضنها. طوب متراص فوق بعضه يتحداني ويملأني كآبة وهو يأبى أن يلين لي فيجمعني مع من فقدتهم قسرًا.

ازداد انقباض قلبي وأنا أتذكر يوم اقتادني ضباط الستازي غربًا ليسلموني إلى مسئولي حكومتي.

ـ عودًا حميدًا إلى ألمانيا الغربية يا هيلدا.

هكذا استقبلني مندوب الخارجية الألمانية الغربية عند نقطة الالتقاء.

ـ أين جريتا؟ أين سيپ؟

كان هذا ردي عليه وإلى يومي هذا لم يستطع أحد أن يشفي غليلي بإجابة.

بخطوات هادئة استمررت في تقدمي نحو نقطة العبور. استقبلني الجنود بابتسامة مبهمة وأنا أخطو بثقة نحو المكتب، وقد حملت في يد هدية جريتا وفي الأخرى وثيقة تحقيق الشخصية. وقفت أمام الشباك وقدمت الأوراق دون أن ألحظ ضجر من تلقى مستنداتي. استغربت تململه قبل أن يصدمني رده المعتاد وكأنني أسمعه لأول مرة:

ـ لا نستطيع السماح لكِ بالعبور يا هيلدا.. تعلمين جيدًا كما نخبركِ كل يوم أن حكومة ألمانيا الشرقية أدرجتكِ على قائمة غير المرغوب في وجودهم.

ـ ولكن جريتا هناك.. أريد ابنتي.. أرجوك أريد جريتا.

ـ آسف يا هيلدا.. آسف.. لن تستطيعي العبور.

مكثت حول المكان بضع ساعات، مشيت إلى نقطة عبور أخرى محاولة من جديد. تتابع عليّ الرفض المستمر عند كل نقطة عبور حاولت عندها. صبرت نفسي بأنني سأنجح بالتأكيد في اليوم التالي. ربما

سأمر على مكتب الحكومة الخاص بشئون المفقودين في الشرق، قبل أن أعود للبيت. في المكتب الحكومي، سيقابلونني ببشاشة مصطنعة وسيحايلونني بإجابات اعتدتها، وأنا أدرك أن كل همهم أن تنتهي زيارتي وأعود من حيث أتيت.

في المساء جلست في المنزل وقد ربض أمامي كماني الأثير. ربع قرن آخر مر عليه دون أن يصدر منه نغم. قمت إلى دولاب ملابسي واخترت قميص نوم شفافًا لم ألبسه منذ زمن. ارتديته فوجدته قد ضاق عليّ. نظرت في المرآة فاستحسنته رغم ضيقه. سعدت جدًا بإبرازه مفاتني. لي زمن لم أشعر أني امرأة. امتلأت شوقًا لسيپ. أصبحت في حالة مزاجية عالية، فأخذت أدندن وأنا أمشط شعري الذي أفقده الشيب ذهبيته.لابد أن أنوثتي البادية قد أججت رغبتي فيما سيجعل الليلة مكتملة. أخرجت كماني من حقيبته، وبدأت في الربت عليه بخفة، قبل أن أرفعه تحت ذقني وأسنده على كتفي وأبدأ في عزف رقيق. المعزوفة التي اخترتها كانت لألبرت بوش، أعلم تمامًا إلى أين ستؤدي فهي أحد الدويتوهات الشهيرة التي يتمازج فيها كماني مع ساكسفون سيپ. استمررت أداعب أوتار الكمان حتى بدأت أنغام ساكسفون حبيبي تتهافت إلى سمعي. شعرت بيد سيپ تلف خصري. رققت عزفي وأنا أنتظر أن يضمني إليه. وجلت قليلاً حين تأخر في مداعبته التي أردتها. توقفت عن العزف واستدرت باسمة أستطلع ما أخره عما اشتقته. وجدت نفسي وحيدةً في منتصف غرفة موحشة.

فعدت إلى فراشي والتقطت دفتر المذكرات من جديد وكتبت:

«لم أنجح في رؤياكِ اليوم حبيبتي، ولكن غدًا يوم جديد.. كل ما أريده اليوم أن أحلم بكِ أحلامًا سعيدة.. لا أريد أن أصحو على نفس الكابوس. سآخذ المنوم الذي وصفه الطبيب، لعله يساعدني على رؤيتكِ في أحلامي.. كل سنة وأنتِ طيبة يا جريتا».

فتحت علبة المنوم وابتلعت حبتين. قبل أن أضعها في مكانها فتحتها من جديد. أضناني تكسير الجسد وانكسار الروح. نظرت لما بها من حبوب مليًّا. لم أتردد وأنا أفرغ ما بداخلها في جوفي وأجترعه بمعاونة كوب ماء. كل ما أريد الليلة هو أن أحلم بصغيرتي دون كوابيس.

سيول ـ كوريا

26 سبتمبر 1988

«صباح أوليمپي سعيد أيها الأوليمپيون».

استيقظت على صوت المذيع الداخلي للقرية الأوليمپية، يكرر تحيته بلغات ثلاث كما اعتاد منذ وصلنا كوريا. وكعادتي منذ وصلت هنا أظل في سريري مشدوهة نصف مستيقظة، أحاول التيقن من كوني أعيش واقعًا لا حلمًا لا زمنيًّا منذ أكثر من عشرة أعوام. تلميذة عادية في ليپزج تركب دراجتها إلى مدرستها كل صباح، وتعود بعد انتهاء الدراسة إلى دار الرعاية الذي أصبح «المنزل» بعدما مات أبواي في حادث السيارة المشئوم. أعرف أنهما لم يكونا والديّ الحقيقيين، ولكنهما من شببت في بيتهما ومن ربياني منذ كنت طفلة أحبو. حصتي المفضلة في المدرسة كانت في صالة الألعاب، وغازل ذهني دومًا بريق أن أصبح بطلة في الجمباز. مع بلوغي الرابعة عشرة، وانطلاق جسدي لأبعاد جديدة، صار الجمباز رياضة لا تلائمني كما أخطرتني مدربتي ذلك الصباح التعيس. لم أيأس وأنا أبحث عن رياضة أخرى تستفيد من قامتي الممشوقة، ونحافتي التي لا يخطئها ناظر. لم أدرِ أن هناك أعينًا خبيرة تتابعني وتسجل ملحوظاتها عما يتسق مع إمكانياتي.

لا يزال ذلك اليوم السعيد محفورًا في ثنايا عقلي؛ يوم استوقفني كشاف المواهب وأنا أركن دراجتي أمام المدرسة وطلب مني:

ـ أريدكِ أن تقودي دراجتك بأسرع ما تستطيعين حتى آخر الشارع ذهابًا وجيئة.

لعل هذا الطلب وهذا اليوم هما الأهم في حياتي قبل وصولي هنا. في نصف ذلك العام الدراسي تم نقلي لمدرسة الموهوبين رياضيًّا، وبدأت أتدرب على سباق الدراجات، وتحديدًا سباق درجات الطريق أو المسافات الطويلة كما يطلق عليه البعض.

أفرك عينيّ وأتثاءب قبل أن أعتزم القيام من السرير، وبدء اليوم الذي قد يصبح الأعظم في حياتي الرياضية. مشواري مع البطولات حافل بانتصارات توالت منذ تبوأت قمة رياضتي في ألمانيا الشرقية، ومنها نافست وفزت بالعديد من الكئوس الأوربية على مدار السنين، لأصل في النهاية إلى الحلم الرياضي الأعظم: المنافسة في الدورات الأوليمپية. قبل أربع سنوات ظننت أنني بصدد تحقيقه، ولكن تحطم

ذلك على صخور الإمپريالية الأمريكية لما قرر بلدي الانسحاب من دورة لوس أنچلوس احتجاجًا على ممارسات البلد المنظم في حق الاتحاد السوڤيتي وحلفائه. برغم حزني وانكساري وأنا من كنت على أهبة الاستعداد لتحقيق ميدالية، بقدر ما تفهمت وأكبرت موقف حكومتنا وقرارها بالانسحاب صونًا لكرامتنا الوطنية.

قبل عشرة أيام، بدأت مسيرتي الأوليمپية وأنا أمشي في حفل افتتاح أوليمپياد سيول خلف علم ألمانيا الشرقية الخفاق. المشاعر التي تملكتني لا وصف لها سوى أنها لا توصف. حين نودي على اسم بلدنا ودخلنا الاستاد وسط عاصفة من التصفيق، لم أستطع السيطرة على دموعي التي انهمرت وأنا وزملائي نلوح بأيدينا محيين الحضور. أدركت وأنا محاطة بهذا الكم من أبطال وطني مقدار المسئولية الملقاة على عاتقي من أجل تشريف بلدي وإحراز نتيجة تتناسب مع ما بذلتُه مع مدربيني عبر السنين. لحظات مثل تلك تمسح العناء والشقاء الذي يتعرض له أمثالي من الأبطال الرياضيين.

القرية الأوليمپية في سيول كانت مدينة متكاملة بها كل ما يحتاجه المتسابقون. البيت الذي سكنته هنا كان به خمس غرف مزدوجة تشاركت أنا وزميلتي پيترا في إحداها. أيقظتها لنبدأ في الاستعداد لليوم الكبير الذي طال انتظاره: يوم السباق. كالعادة ونحن ندخل قاعة الطعام الكبرى بالقرية، استقبلتنا فتاة كورية جميلة وهي تحيينا بما هو أشبه بالغناء. ما إن دخلنا القاعة حتى لوح إلينا طاقم التدريب الذي كان بانتظارنا، وقد حضروا لنا أطباقًا ارتأوها تناسب إفطار اليوم. انضم إلينا أولاف لودڤيج صاحب فضية دورة موسكو، وأخذ في إعطائنا نصائح متنوعة بخصوص السباق، خاصة بوجوب تنظيم جهدنا حتى نتلافى أثر الحرارة العالية. أظن أن الوجوم الذي أطبق علي أنا وپيترا كان رد فعل طبيعيًّا جدًّا للرهبة التي لبدت الأجواء، وعظمة ما كنا بصدده.

أنهى مدير الفريق الوجبة حين قام من كرسيه ممسكًا بذراع زميلتي:

ـ تعالي معي.

ثم التفت إليّ:

ـ وأنتِ قابليني في حجرة الطبيب بعد ساعة.. خذي هذه الآن.

وجدته يمد يده بحبة الڤيتامين الزرقاء التي اعتدت ابتلاعها يوميًّا منذ انتقلت لمدرسة الموهوبين.

ناداني مدربي وهو الآخر يقوم من مجلسه:

ـ لنذهب لفحص دراجتك.

كانت دراجتي رابضة في مخزنها ترتكن على حائط في انتظاري. تفحصت معدنها الأسود وأنا أقترب من رفيقة درب بطولاتي. تحسست المقعد حين أصبحت بجوارها ثم بدأت يداي تلامس كل جزء من هيكلها اللامع. صنعها علماء ألمانيا الشرقية خصيصًا من أجلي، ومن أجل المناسبة التي سيلتحم فيها جسدي بمعدنها ونحن نطارد هدفًا مشتركًا: ميدالية أوليمپية تضاف لرصيد ألمانيا الشرقية. دولة لا يتعدى تعداد سكانها السبعة عشرة مليون نسمة، ولكنها دورة بعد الأخرى تبهر العالم برصيد ميدالياتها وهي تناطح بلادًا مواطنوها مئات الملايين. كدت أهمس للدراجة الجامدة أمامي أننا بصدد ما تدربنا عليه وكافحنا من أجله، لولا خفت أن يظن المدرب الذي رافقني أنني قد جُننت. طالما حادثتها وأنا منفردة بها أو وأنا أركبها في سباق أو تدريب. لم تكن بالنسبة لي جمادًا بل كانت نصفي الأهم في رياضتي، ودائمًا ما شعرت أن لها عقلاً يفهمني ويتجاوب مع نبضاتي والإشارات الصادرة من عضلاتي. حين أقسو على بدالها لا تئن، بل تستجيب فتعلي من سرعتها دون شكوى، وأنا بدوري أشعر بها تلهث فأخف من وطأة دوسي على أجزائها. حين يبدأ السباق نستحيل كتلة نابضة واحدة تنتقل ما بين عضلاتي وتروسها أوامر عقلي والطاقة التي في عروقي، ونحن نعدو سويًّا عبر منافسينا. وعند اقتراب لحظات النهاية يقتصر عالمي وتنغلق أحاسيسي على المعدن الذي يأتمر بالضغط الصادر من عضلات ساقي والأدرينالين الذي يدفع بنا نحو المقدمة.

تركت الدراجة لمسئولي الفريق لينقلوها لنقطة بدء السباق، وتوجهت لغرفة طبيب الفريق كما طلب مني المدير. كانت پيترا على وشك المغادرة حين وصلت. بعد أن تركت زميلتي الحجرة طلب مني الطبيب أن أتمدد على السرير، وأن أكشف عن ساعديّ. بهدوء أدخل إبرتين في عروق كل ذراع بعد أن استمع بسماعته الطبية إلى قلبي وصدري. أظنه لاحظ اندهاشي بما هو مقدم عليه فأخرج سماعته من أذنه وتحدث إليّ:

ـ سأقوم بسحب كمية من دمكِ ثم أعيد حقنكِ بدماء جديدة بها نسبة أوكسچين مرتفعة.

أظنه رأى الحيرة في وجهي فقرر أن يستفيض:

ـ سيعطيكِ هذا طاقة عالية ويزيد من قدراتك أثناء السباق.. علماؤنا

**أجروا اختبارات على هذا التكنيك وثبت نجاحه وأعطى نتائج مبهرة..
كما أنه لا يكتشف إن أجروا لكِ اختبار منشطات.**

أغمضت عينيّ وتركت الطبيب يقوم بما يحتاج أن ينفذه. طرقت أبواب ذهني صورة حبيبي هانز بطل سباقات السرعة. ابتسمت وأنا أستعيد تقاطيع وجهه التي لطالما أسرتني من أول يوم وقعت عيناي عليه في مدرسة المتفوقين في ليبزج. وسامته وجسده الرياضي الممشوق جعلاه مطمعًا لمعظم الفتيات اللوائي زاملننا، ولكنني كنت اختيار قلبه. خمس سنوات قضيناها في قصة حب جعلت قسوة التدريبات والبطولات وضغوطها تهون. أصبحت حياتي في تلك الفترة لها أغراض أخرى توازي المطلوب مني على سبيل إحراز البطولات. ولكن هذا لم يدُم إذ تغير هانز؛ صار صامتًا واجمًا أغلب الوقت، وكأن عقله ترك جسده إلى مكان آخر. أتذكر ذلك اليوم الذي ودعني فيه بهمسات لم أفهمها حين أسر بها إليّ. أتخيله بعد ذلك يمرق بدراجته عبر أحد معابر السور الفاصل بين شطري برلين.

لا بد أنه في تلك اللحظة استطاع أن يتفوق على نفسه ويكون أسرع من أي سباق فاز به. حكوا لي فيما بعد أن عجلة دراجته الأمامية عبرت إلى الغرب، ولكن رصاصة جندي الحدود لم تسمح للعجلة الخلفية بعبور خط النهاية الذي ابتغاه هانز. سقط حبيبي صريعًا على الخط الفاصل بين واقعنا وحلمه بالحرية. أحسست بدموعي على وجهي وأنا ما زلت على سرير الطبيب، فأسرعت أمسحها وأذهب بذهني لحيث يجب أن يكون تركيزي؛ إلى السباق الأوليمپي الذي قضيت حياتي أنتظر الفوز به.

**بعد ساعتين، كنت أعتلي الدراجة عند نقطة بدء السباق وسط أكثر من خمسين متسابقة أتين من كل أنحاء العالم يحدوهن أمل واحد.
تحسست خوذتي وأنا أنظر حولي فأرى الإصرار يملأ عيون البعض، والرهبة تقفز من عيون أخريات. ثمانون كيلومترًا وساعتان أو أكثر قليلًا أصبحا تفصلان إحدانا عن التتويج ملكة لرياضتنا لمدة أربع سنوات. عضضت شفتيّ وأنا أنتظر إشارة البدء، وأغمضت عينيّ لحظة وأنا أستعيد خطتي للسباق. سأظل وسط المجموعة الأكبر معظم السباق، ثم عند إشارة الكيلومترات العشرة الأواخر سأضغط بدالي وأستمد من كل طاقتي القوة التي تجعلني أتقدم بالسرعة التي اشتهرت بها، فأصل إلى المقدمة وأظل هناك حتى نقطة النهاية.
حاولت أن أحدد أين وقفت پيترا بين المتسابقات، لكنني لم أستطع إذ عاجلني صوت الطلقة التي تعلن بدء السباق.**

القاهرة ـ مصر

11 مارس 1964

ـ أنتِ حامل.

ـ أعرف.. أو لنقل كنت منتظرة تأكيدك.

ـ على حساباتي، الولادة ستكون في شهر نوفمبر.

ـ لا أريده.

ـ عفوًا؟

ـ أريد التخلص من الجنين.

ـ أنا طبيب ولادة، لا إجهاض.

ـ يا دكتور، لقد أرسلني إليك حاتم السيوفي.. أعلم أنك من تخلصه أو تخلص صديقاته مما لم يحسبن حسابه.

ـ عفوًا يا سيدتي، قد أكون قد فعلت ذلك فعلًا، ولكن لا بد أن أكون مقتنعًا بالأسباب.

ـ وهل هناك أسباب مقنعة للإجهاض وأخرى غير مقنعة؟ ثم إن سمحت لي ما دخلك بأسبابي؟

ـ سيدتي، أنا وأنتِ سنصبح شريكين في تنفيذ قرار ليس بالهين.. كما من حقكِ أن تقرري من حقي أنا أيضًا أن أقرر إن كنت سأشارك أم لا.

ـ حاتم سيدفع لك ما تطلب.. أظن أن هذا هو ما يخصك!

ـ تتحدثين إليّ كما لو أنني تاجر أو صنايعي.. أو لعلك ترينني بائع روبابيكيا أتيتِه ليخلصكِ من قطعة قررتِ ألا حاجة لكِ بها.. قد تستغربين تركيبتي، ولكني لا أقوم بهذا من أجل المال فقط.. لا بد أن أقتنع بالأسباب.

ـ أمرك غريب يا دكتور.. تقر أنك تقوم بعمليات إجهاض، ولكنك تريد أن

تقننها أخلاقيًّا؟!

ـ إن أردت، أستطيع إعطاءك أسماء أطباء آخرين لن يسألوكِ عن أسبابكِ.

ـ أنا غير مؤهلة لأن أصير أمًّا.

ـ كل أنثى مؤهلة كي تكون أمًّا.. هذا جزء من تركيبتكن البيولوچية.

ـ ظروفي لا تسمح.

ـ اسمعي، أنا فعلًا أساعد حاتم وأمثاله، ولكن حين تكون الفتاة في مقتبل العمر.. حين تكون بها رعونة لم تقدِّر معها تبعات نزواتها.

قاطعته:

ـ أما أنا فسيدة ناضجة لا يصح أن تكون لها نزوة.

ثم عدت:

ـ قلت لك، ظروفي الحالية لا تسمح لي أن يكون لدي أطفال.

ـ عفوًا ولكنها، ولمن في سنك، قد تكون فرصة أخيرة لن تتكرر.

ـ وأنا مستعدة أن أغامر بتلك الفرصة.

صمتنا برهة قبل أن أسـأله:

ـ هل لو كنت من أهل بلدك كنت ستقترح عليَّ أن أحتفظ بطفل

لا أب له؟!

ـ هذا قد يكون من أسباب قبولي لقرار المصرية.. ولكني أظن أن ذلك ليس حائلًا للنساء الغربيات.

ـ تكيل بمكيالين إذًا؟!

ـ ألا تختلف المكاييل من شخص لآخر، في كل شيء ولكل ظرف؟

صمت متوتر من جديد، قبل أن يعاود محاولته:

ـ هناك طرف لا صوت له نتناقش أنا وأنتِ الآن على إنهاء رحلته إلى الدنيا قبل أن تبدأ.. لماذا يدفع من ببطنك ثمن خطئك؟

ـ أنقذه من عدم استقرار، ومن أمواج عاتية ستضرب حياته.. ما أطلبه هو الأفضل له.. ثم إنه ما زال قطعة لحم بلا روح، لم تدب به الحياة.

ـ الإجهاض فيه خطورة عليكِ.. قد ينهي فرصكِ في الحمل من جديد.

ـ ومن قال إني أريد أن أحمل مجددًا.. هذا كابوس أريد إنهاءه.

ـ قد تكون ظروفكِ الحالية السبب فيما تقولين.. إصراركِ لن يكون بعده رجعة.. ندمكِ فيما بعد لن يكون له حل.

وأضاف:

ـ لقد حباكِ القدر بما تحلم به أخريات، يحرمهن نفس القدر منه. آسف إن كنت كمن يلقنكِ درسًا، ولكني أراه واجبًا عليَّ أن أحذركِ.

ـ هل ستستمر مناقشتنا أكثر من ذلك؟ قلت لك إني غير راغبة في الأمومة.

بكيت على غير رغبة وأنا أقول:

ـ أنا غريبة في بلاد غريبة، لا أعلم أين سيستقر بي الزمن ولا أعلم حتى إن كنت سأستطيع أن أعول نفسي، فهل أُحضر إلى الدنيا من ستصبح حياته إضافة لمأساتي؟!

ـ أعتذر عن تدخلي فيما لا يعنيني، لكنني فقط لا أريدكِ أن تصري على قرار تندمين عليه لاحقًا.. واجبي الأخلاقي يحتم عليّ ذلك.

ـ الأخلاقي؟

أحسست بغصة توتر في صوته:

ـ تستعجبين أن أتكلم عن الأخلاقيات، وقد أخبركِ حاتم أني أجهضت له عشيقات من قبل؟ لكِ حق!

ثم استطرد:

ـ نعم أقوم بعمليات إجهاض، ونعم أتكسب منها، لكنني أفعل ذلك للأسباب الصحيحة لا للأسباب المادية فقط.

ـ الأسباب الصحيحة؟

ـ نعم، فهناك أسباب صحيحة.. أسباب تخص صحة الأم أو حالتها الاجتماعية، أو وضع مجتمعها.. أقول لكِ في حالات كثيرة أقوم بتلك العمليات خوفًا على مريضاتي من أن يتولى إجهاضهن من لا خبرة له، أو من قد يتسبب في أذى أكبر لهن.

ـ طبيب إجهاض مضحٍّ ذو مُثُلٍ إذًا!

ـ لكِ أن تسخري كما تشائين، ولكن هذا هو منهجي فعلًا.

ـ لم أقصد التهكم عليك، ولكن فعلًا كلامك عجيب ومتناقض.

ـ دعيني أسألكِ: لو أن ظروفكِ تسمح، ألا تريدين أن تكوني أمًّا؟ ألم يكن هذا جزءًا من أحلامكِ وأنتِ شابة؟

ـ هذا الحلم كان يشتمل على زوج أحبه ويحبني، وحياة مستقرة في مكانٍ من اختياري وبيئة هادئة أحسن فيها تربية أطفالي.

ـ تلفظين الحلم كله لأن فيه أجزاء غير مكتملة؟

ـ ألفظ الحلم لأن حياتي حاليًا أقرب للكابوس.

عاد الصمت، ولكنني ما لبثت أن كسرته:

ـ حلم كل أنثى لا يشتمل بالتأكيد على معتدٍ أو نذل.. حلمها تصنعه برغبتها ولا يفرض عليها.. تحققه متى رأت أن أوانه قد حان.. أتفهم لماذا تحطم حلمي الذي تتحدث عنه؟

ـ اسمعي، لن أقترب حتى من الحدود الأخلاقية أو الدينية في حديثي هذا، ولكنني أريدكِ أن تمعني التفكير من جديد في قراركِ.. قراركِ فيه إنهاء لحياة لم ترتكب إثمًا ولا ذنبًا.. وليست حياة أي أحد، بل حياة من يتشكل بداخلكِ ويتكون من خلاياكِ ويتغذى من أوعية جسدكِ.. قراركِ مفارقة لجزء منكِ.. فكري جيدًا.

ـ ماذا عمن زرع بذرته بداخلي؟

ثم فاجأته:

ـ لست واثقة من هوية الأب! أتدري ما يعني هذا؟

خفت صوته قليلًا من دهشته، لكنه لم ييأس فعاد بعد تفكير:

ـ كوني له أو لها أبًا وأمًّا.. الأنثى تستطيع ذلك.

تحسست بطني وأنا أسمعه. لم أشعر بشيء حيث وضعت يدي، ولكن بدأ بداخلي نوع من الفوران والقشعريرة لم أعهده. أصبحت وجنتاي مبللتين عن آخرهما فقلت له بصوت يملؤه الرجاء:

ـ لماذا تصعب عليّ قرارًا لا بديل عنه؟

ـ فقط حتى لا أتحمل ندمكِ يومًا.

ـ جزء من أتعابك أن تتحمل ندمي.. وندمك!

ـ واضح أنك مصرة.

ـ نعم.. حدد الموعد من فضلك.

سكت، وعبس وجهه قبل أن يفاجئني:

ـ لديّ حل آخر.

القاهرة ـ مصر

20 مارس 1964

ـ قولي ورائي يا ابنتي: أشهد أن لا إله إلا الله.

ـ أشهد أن لا إله إلا الله.

ـ وأن محمدًا رسول الله.

ـ وأن محمدًا رسول الله.

ـ مبروك عليكِ نعمة الإسلام.. هل اخترتِ اسمًا إسلاميًّا حتى أكتبه في شهادة إشهار إسلامكِ؟

ـ إيمان محمد عبد الرحمن.

سعد الشيخ بالاسم المختار، ثم وقع شهادة إشهار إسلامي. غادرت مع شاهدي إسلامي مشيخة الأزهر واتجهنا لجاردن سيتي. توجهنا إلى مكتب شيخ آخر: مأذون الحي. لم يطل بنا المقام إذ سرعان ما أصبح بحوزتنا قسيمة زواج إيمان على كمال عز الدين، بعد أن شهد على زواجي شاهدان من أتباع المأذون. من فرط سعادة المأذون بشهادة إشهار إسلامي لم يدقق في أية أوراق أخرى، وأثبت زواجي باسمي الجديد دون بطاقة.

من سرعة توالي الأحداث عليّ، فضلت أن أكمن في مقعد المشاهد وكأن تبعات ما يحدث لا تخصني. اقترح الطبيب حلاًّ أظنه يرضي ضميري وضميره في آن واحد. ولعل الحل أيضًا لم يضر بجيبه، إذ توقعت أن يكافئه الطرف الآخر للحل.

قدم لي كمال وزوجته إيمان. زوجان مصريان: كمال أظنه في مثل سني وإيمان ربما تصغره بعشر سنوات أو أكثر. إيمان بيضاء، شعرها كستنائي، أغلب ملامحها أوروبية، ورثتها كما قالت لي من ناحية أمها التي أتت عائلتها من بر الشام. كمال مهندس ميكانيكا درس في ألمانيا، وعاد ليلتحق بسلاح المهندسين بالجيش المصري. كلاهما من عائلة ميسورة، تزوجا قبل عشر سنوات وقطنا شقة بعمارة تمتلكها عائلة إيمان في جاردن سيتي.

حين ألقى الطبيب باقتراحه، غمرني ارتياح كنت بحاجة إليه. حجته، بجانب أحاسيس الذنب التي أوجدها حديثه المطول معي، جعلتني أتقبل ولو على الأقل من رشحهما ليكونا أبوين بديلين لمن في أحشائي.

ـ ستحبينهم، وستفعلين ما يزيح عنكِ وخز ضمير لن تستطيعي العيش به.. من كلامكِ أراكِ سيدة طيبة القلب، فلا تجعلي الظروف تتركك بندم يدمي قلبكِ طوال العمر.

يوم اللقاء، أوصلني الدكتور إلى منزلهما، وما لبث أن استأذن لحاجته لأن يعود لعيادته. جلس ثلاثتنا في صالون بيتهما، يلفنا سكون حرج وقد هربت منا جميعًا القدرة على فتح الكلام. استمررنا في تبادل نظرات خجلة قبل أن يتنحنح كمال ويبدأ الحديث:

ـ لم يقدر لي أنا وإيمان أن نرزق بأطفال، رغم أننا حاولنا بكل الطرق.

علته حمرة خجل وهو يستطرد:

ـ الأطباء والتحاليل أشاروا لكوني عقيمًا.

تدخلت إيمان:

ـ احتفظنا بهذا السر بيننا لا يعرفه إلا الأطباء.. نحن نحب بعضنا ولا يمكن أن يستغني أحدنا عن الآخر.. لذلك قررنا أن نتبنى من يشاركنا طاقة الحب التي بيننا.

ـ موضوع التبني في مصر معقد، خاصة في أوساطنا، لا يلقى قبولًا.. لا نريد لمن سيعيش في كنفنا أن يواجه تساؤلات أو أن يُعامل كما لو كان في درجة أدنى.

استمر كمال يشرح ما وصلا إليه في التخطيط، لكي لا يعاني طفلهما المتبنى من نظرة قد تكون دونية في مجتمع من الواضح أن الأصول تحكمه وتدير دفته. الطبيب الذي عرفني عليهم كان أحد من استشاروه في رحلة بحثهم عن الحمل، وحين أيقن بألا أمل لهما في ذلك، كان هو من اقترح الحل الذي أخبرني به، وكأنها فكرة ألمعية وليدة لحظات حواري معه. سيجد لهما من تريد التخلص من جنين فُرض عليها، وبدلًا من الخلاص من حمل لا تريده يُكتب الوليد باسم كمال وإيمان، منذ لحظة وصوله إلى الدنيا.

تفكرت فيما روياه لي فوجدت أنني حالة مثالية لما يبتغياه. امرأة

غريبة عن وطنهما لا جذور لها فيه؛ تحمل ما لا تريده وما يشتهيان.

ـ لا بد لي أن أروي لكما السبب في وجودي هنا.. لقد ارتحت لصراحتكما، لذلك سأئتمنكما على ما لا يعرفه أحد، ولكن عليكما أن تعلما أن إفشاء هذا السر قد يشكل خطورة على حياتي.

انطفأ بريق الحماسة الذي أضاء وجهيهما منذ بدأنا جلستنا. أظنهما خشيا أن أكون مجرمة عتيدة ورجحا أني في الأغلب سأورث جنيني بذورًا غير مرغوبة.

بدأت في حكايتي منذ أيام الحرب مرورًا بفقدي أبويَّ واختطاف هيلدا، حتى وصلت إلى رسالة التهديد التي انسلت ذات مساء من تحت باب بيتي في برلين. شرحت لهما كيف اتصلت بالأوديسا عن طريق لوكاس، وكيف عاونوني في الخروج من ألمانيا.

استوقفني كمال:

ـ الأوديسا.

ـ منظمة سرية تعاون النازيين في الهروب من مصائر لا يستحقونها.. لم أكن أعلم بوجودها إلا من لوكاس، يوم ذهبت إليه مرتعشة من التهديد الذي وصلني.

أظنهما ارتاحا إلى قصتي ولم يشكا في أي تفصيلة سردتها عليهما. الجزء الوحيد الذي أدغمته كان عبوري من زرمات إلى چنوة، إذ مررت على تلك التفصيلة وأنا أجتهد في منع دموع ذكرى ما فعله بي ضابط الحدود الإيطالي.

ولكنني بكيت وأنا أحكي لهما:

ـ بعد الانفجار، ركضت لداخل غرفة ديبوش، فوجدته واقفًا وظهره للنافذة، مرتعشًا، ينظر لجسد عم عبده المغطى بالدماء والملقى إلى جانب الباب.

ارتجفت وأنا أستعيد منظر ديبوش واقفًا أمام جسد عم عبده الجريح الملقى على الأرض مضرجًا في دمائه. دون أن أشعر سالت الدموع من عيني ورعب المجهول يملؤني. مطاردة في بلاد غريبة ظننت أن من يطاردونني لن تطولني أيديهم فيها. تجدلت في ذهني كيف استطاع الموساد الإتيان بأيخمان من الأرجنتين وكيف كادوا أن يغتالوا ديبوش في القاهرة فارتعدت من المصير القاتم الذي بالتأكيد ينتظرني على

أيديهم وقد أصبحت على قائمة من يُطلبون.

قامت إيمان وربتت عليّ، ثم ما لبثت أن جلست بجانبي واحتضنتني. من وسط دموعي طمأنتهم:

ـ فقد عم عبده إصبعين، وأصابت شظية إحدى عينيه، لكنه عاش.

ارتحت في حضنها واعتراني دفء كنت بحاجة إليه، فأسندت رأسي على كتفها وأجهشت في البكاء. كنت قد فقدت قدرتي على الشعور طوال المدة الماضية، ولكن تواصل إيمان أخرج من كينونتي مشاعر حزن وأسى حبيسة كتمتها وأنا في خضم هروبي ممن هددوا وزلزلوا ما ظننته حياة مستقرة.

مد كمال يده بكوب ماء كان قد أحضره. وجدته يتفحصني وكأنه يراجع ما أخبره به الطبيب من جودة حالتي الصحية. شعرت في تلك اللحظة كما لو كنت من خيل السباق، يعاينه المشتري قبل إتمام الشراء.

ـ لست بشريرة، ولكن أظنكما تفهمان الآن لماذا لا أريد أن أنقل عذاب ما اختبرته لمن في بطني.

ردت إيمان:

ـ لو كنت في مكانكِ لكان هذا قراري.

سارع كمال بالتدخل:

ـ ولكنكِ الآن لديكِ خيار آخر مرضٍ فيما أظن.

برغم أنه بدا عمليًّا في مداخلاته، لكنني شعرت بطيبته. نظراته لإيمان وهو يحكي عن زواجهما ترجمت مدى حبه لها. كلماته أكدت لي استعداده لعمل أي شيء يسعدها، حتى لو استلزم الأمر أن يكذب على العالم أجمع لكي يكون لديها الطفل الذي تتمناه.

ـ سنساعدكِ كيفما تريدين.. وأعدكِ أن الطفل سيلقى أحسن تربية، ولن نبخل عليه بأي مما نملك.

ـ ظننت أنني في بلدكما سأكون بعيدًا عن أعينهم، ولن تطولني أيديهم، ولكن بعد ما حدث لكارل لم أعد أشعر بالأمان.

ـ بعد أن تلدي سأعاونكِ على الوصول لأي مكان تريدينه..

لا تقلقي.

ـ لي شرط واحد يا ليليان.

نظرت إلى إيمان منتظرة شرطها.

ـ ما سأطلبه صعب على أي أم، بل يكاد يكون مستحيلًا.. ستعطينني كلمتكِ وتعدينني أننا إذا نفذنا اتفاقنا، فلن تحاولي يومًا أن تتصلي بمولودكِ.. تحت أي ظرف.

تدخل كمال:

ـ لو حدث هذا ستكون منتهى القسوة من جانبكِ يا ليليان، لأنكِ ستقلبين حياة المولود رأسًا على عقب.. لا نريد له يومًا أن يكتشف أنه يعيش كذبة.

أطرقت رأسي ويدي تلامس بطني، ومرت عليّ لحظات ثقيلة سرح فيها ذهني نحو المجهول؛ ثم رفعت رأسي ووجهت نظري لإيمان قائلة:

ـ أعدكِ.

القاهرة ـ مصر

6 نوفمبر 1964

انطلقت السيارة بركابها تقطع طريق كورنيش المعادي، وقد داس السائق على بدال السرعة حتى آخره. سيطر التوتر على الركاب وهم يتخطون السيارات القليلة التي شاركتهم الطريق؛ الواحدة تلو الأخرى صبيحة هذه الجمعة. على المقعد الخلفي جلست ليليان تتفحص المشهد الذي يجري أمام عينيها، تكاد لا تصدق ما مرت به حياتها من تقلبات لم يكن خيالها يومًا قادرًا على أن يشطح بها ويتخيلها بطلتها. حاولت أن تأخذ وضعًا مريحًا في السيارة النصر 1300، التي تمخر بها مع إيمان وكمال في اتجاه وسط المدينة. ابتسمت الألمانية وهي تستعيد نوع السيارة التي يركبونها، فتداعبها دهشتها التي لا تزال مستمرة من هذا البلد، الذي يكاد أن يكون قرر رسميًّا تسمية كل ما ينتجه «نصر» أو «ناصر».

وقف الطبيب في استقبالهم بمدخل مستشفى الولادة الذي يديره. مستشفى صغير يحتل دورًا في إحدى عمارات شارع طلعت حرب بوسط القاهرة. حين وصل كمال عزالدين وبصحبته إيمان وليليان، بدأ مستقبلهم في إلقاء تعليماته، وجَّه أولها لكبيرة الممرضات التي كانت واقفة إلى جواره:

ـ خذي السيدات إلى غرفة 110 وابدئي في إعداد الحالة للعملية القيصرية.. أريدها جاهزة في غرفة العمليات خلال نصف ساعة.

بدت الحيرة على وجه الممرضة، وهي ترى أمامها سيدتين تسبقهما بطون ضاقت بما تحمل، فقررت أن تلفظ الأجنة التي احتفظت بها أشهرا طوالا. سبقت ابتسامة إيمان قولها وهي تشير إلى ليليان:

ـ دورها هي اليوم.

انتحى الطبيب بكمال بعد أن غادرهما الوفد النسائي:

ـ أوراقك جاهزة؟

ـ نعم.

ـ إذًا من فضلك اذهب إلى شئون المرضى لتسجيل الدخول.. اخترت

يوم الجمعة لأن النبطشي موظف صغير قليل الخبرة.

ـ اسم المريضة يا فندم؟

ـ إيمان محمد عبد الرحمن.

ثم أخرج كمال جواز سفر ليليان مصحوبًا بشهادة إشهار الإسلام المدون بها الاسم. تلعثم الموظف الشاب وهو يحاول إيجاد خانة الاسم في الجواز الألماني. زادت حيرة الغِر حين ازدادت الأوراق التي أمامه بقسيمة زواج أخرجها كمال من جيبه مصحوبة ببطاقته:

ـ هذه بطاقتي العائلية، مدون بها اسم زوجتي كما أمليته عليك.

ارتاحت أسارير الرجل بعض الشيء، ثم عاد حائرًا من جديد ليعاجله كمال:

ـ هذا كارنيهي العسكري إن كنت تحتاجه.

انتفض الموظف واقفًا من على كرسيه:

ـ العفو يا فندم.. تحت أمرك.

أدرك كمال عند هذه اللحظة أنه أصبح متحكمًا في الموقف.

ـ اسمع، ما زلنا لم نصدر لزوجتي بطاقتها الشخصية الجديدة منذ إسلامها.. ولكنها مثبتة على بطاقتي كما ترى.. أعطيتك الجواز الألماني فقط كي تكتمل الصورة لديك.

ـ مفهوم يا فندم.

ـ طبعًا أنت أدرى؛ لا نريد لاسمها الألماني أن يظهر في ورقة قيد الطفل التي سيصدرها المستشفى لاستخراج شهادة الميلاد.

ـ مفهوم يا فندم طبعًا.. ربنا يكرم المدام بالطفل وبإسلامها.

حينذاك أخرج كمال خمسة جنيهات من جيبه ومد يده بها للموظف، وفي باله أنه يناوله قاضية وفاصلة الموقف.

ـ العفو يا فندم.. لا داعي.

ـ لك مثلها حلاوة المولود حين تعطيني ورقة القيد.

في الغرفة غيرت ليليان ثيابها، ولبست الروب الأبيض الذي أعطته لها الممرضة. إحساسها بالثقل زاد في الأيام الماضية، مع هبوط الجنين من موضعه داخل أحشائها. لم يكن بها ألم مبرح كما تخيلت، وإن عاودها مغص متفرق ليصاحب الوجع المستمر في ظهرها. تقلباتها المزاجية هي ما شغلتها الفترة الماضية. على مدار أسبوعين وهي تنتقل من غضب إلى سرور قبل أن تعرف لأيهما سببًا. تجد نفسها منهارة في البكاء قبل أن تنهي الوصلة ضاحكة على حالها. ساورتها شكوك أن أصابها جنون كعرض لما مرت به على مدار ما يقرب من العام. أسوأ أحاسيسها كان شعور عدم ارتياحها في جسدها الجديد، الذي تضخم بما تحمل وتفككت أوصاله، بالذات مفاصلها التي بدا لها أنها فقدت التحكم فيها. أما عن النوم الذي جافاها طوال الأيام الماضية، فقد زاد من نغاصة حالها وهي تحاول كل ليلة في سريرها أن تجد موضعًا ترتاح وتركن إليه. حتى جلسات إيمان معها لم تعد تتوق إليها ولا للصداقة التي غدت وطيدة بين السيدتين على مدار أشهر الحمل، التي أصبحت على وشك الانتهاء. أما العارض الذي استغربته كثيرًا فهو رغبتها الدائمة في التنظيف والترتيب في البيت، حتى صار كل ركن فيه يلمع من فرط النظافة.

استمرت إيمان في الربت عليها ومسح جبهتها وهي تتمتم بأدعية وآيات قرآنية. استسلمت لها ليليان في أريحية، وازدان وجهها بابتسامة خفيفة وهي تشعر بعطف ومحبة من أصبحت الأقرب إليها.

حين عادت الممرضة ومعها رجلان يجران سرير العمليات لأخذ ليليان، مالت عليها إيمان واحتضنتها طويلًا، قبل أن تقبل وجنتيها وتسمح للرجلين باصطحابها. مشت إيمان خلفهما وهما يقودان ليليان عبر الممر الطويل إلى غرفة العمليات، وهي تقرأ بصوت مسموع آيات من القرآن. توقفت عند باب الغرفة والتقت نظرات المرأتين بمعانٍ مضمرة، قبل أن يغلق الباب وراء مَن عبرا به.

جلس كمال بجوار زوجته على مقعدين في طرقة المستشفى، ليسا بعيدين عن يافطة «عمليات» التي بروزت الباب المغلق. لم يدرِ الرجل أي مشاعر تخالجه وإن أحس أن بداخله نوعًا من الخواء. أمسك بيد زوجته، التي وجد بها برودة غير معتادة تزامنت مع الشحوب الذي علا وجهها.

ـ هل ما نفعله صحيح؟

ـ سؤال متأخر جدًّا يا إيمان.

ـ أجبني!

ـ وما الخطأ فيه؟

ـ لو لم يكن به خطأ، أكنا احتجنا لفعل كل ذلك؟

ـ ماذا فعلنا؟ أنقذنا وليدًا من الموت.. أنسيتِ أنها كانت ستجهض لو لم نكن متاحين.

ـ وفي إنقاذنا نخالف الشرائع والقوانين.

وجم كمال وهو يستدعي ردًّا، تنفس من سيجارته وهو يحاول أن يطمئن نفسه قبل أن يطمئنها:

ـ ما نفعله لصالح القادم لهذه الدنيا.. أي معادلة أخرى ستتسبب في تعاسة له أو لها.

ـ خائفة!

ـ طبيعي يا حبيبتي.. نخطو خطوة صعبة بكل المقاييس.

ران بينهما هدوء قَلق قبل أن يواصل الزوج الحوار من جديد:

ـ أراد القدر أن يعوضنا عما حرمنا فدعينا نستبشر بذلك.

ـ ولكننا نلوي عنق ما يريد أن يحبونا به.

ـ بعد سنوات، وبعد أن نتعب في تربية الرضيع ونحسن تربيته؛ تصوري أنه يتقدم لفتاة من عائلة مثل عائلتنا.. نذهب لنزورهم وأنظر إلى الأب وأقول له: أنا هنا لطلب يد ابنتك لهذا الشاب الذي تبنيته.. هل تظنين أنهم سيقبلونه؟

سكتت إيمان واستمر كمال:

ـ نحن في مجتمع يرفض من تزداد دكانة جلده درجة عن المقبول، فما بالكِ بمن سيعتبرونه مجهول الأصل.. يوم تعرف أم زميل له في المدرسة أنه ليس من صلبنا، سيلفظه أترابه في اليوم التالي من وقع ما سيسمعونه في بيوتهم عن زميلهم «اللقيط».

ـ أدرك تمامًا ما تقوله.. لكن بقلبي غصة من الكذبة التي سنعيشها.

ـ أي كذبة؟ سر ما بين زوجين لا أكثر ولا أقل.. مرة أخرى

يا إيمان، نحن نعطي فرصة للحياة، لنا وللقادم.. أحبك وأريد لحياتنا أن تكتمل بتلك الهدية.

فرت دمعة من عينه وهو يضيف:

ـ عجزي هو الذي وضعنا في هذا الموقف.. أنا آسف.

التفتت إليه إيمان، وشدت على يده التي كانت لا تزال تحتضن يدها، التي لم تعد باردة بعدما انتقل إليها دفء مشاعره.

ـ لا تلُم نفسك على مقدر.

مسحت دموعها ومالت عليه تطبع قبلة خفيفة على خده، وقالت:

ـ أحبك.. وأحب القادم دون أن أراه.. يا رب نسعد به.

انفتح الباب الذي في آخر الممر، وخرج منه الطبيب متجهًا في عُجالة تجاههما.

ـ بنت جميلة.. مبروك.

ثم فهِما القلق البادي على وجهه حين أخبرهما:

ـ نزفت ليليان كثيرًا.. تحتاج نقل دم.. نقلتها لغرفة الإنعاش.

برلين ـ ألمانيا

3 نوفمبر 1992

«برجاء وضع المقعد في الوضع الرأسي وربط حزام المقعد، حيث إننا بدأنا الهبوط تدريجيًّا إلى مطار برلين».

تدافعت الأفكار من جديد بداخل رأسي، وأنا أوشك على سبر تفاصيل الانقلاب الذي أصاب حياتي. ما زال المحامي هيلموت وزيارته وغموضه أبطال المسلسل الذي فرض نفسه عليّ دون أن أشك في وجوده أصلًا.

ـ أنتِ أمي؟

نظرة الرعب التي علت وجهها حين وجهت لها السؤال كانت كافية. تلعثمت وبكت واحتضنتني دون أن تنبس بتفسير، ولكنني أصررت واستمررت في تكرار السؤال فاضطرت معه أن تجيب:

ـ أنا أمكِ التي ربتكِ وإن كنت لم أحملكِ في بطني.

ـ ظلم! ما فعلتِه به ظلم.. عشت كذبة كي ترتاحي أنتِ.

ردت هجومي:

ـ كذبة؟ وهل رعايتي وتربيتي لكِ كذبة؟ هل قصرت نحوكِ في أي شيء أو في أي يوم؟! أنا أمكِ، سهرت بجانبكِ وبكيت لألمكِ وفرحت لفرحكِ.. أنا من ساندتكِ دون غرض وبذلت كل ما في وسعي فقط كي تكوني سعيدة.. قولي أنتِ لي ما الفرق بيني وبين أي أم أخرى ممن حملن؟

ثم عادت بصوت مجروح من أثر نقمتي البادية:

ـ وإن كنت كذبت فقد كذبت ومصلحتكِ أنتِ وحدكِ نصب عيني.. كذبت كي لا تشعري يومًا بنقص.. كذبت لأنك أصبحتِ سبب سعادتي.. كذبت لأن القدر أرسلكِ لي عوضًا عما حرمني منه.

ـ كذبتِ حتى لا تتأثر وجاهتكِ الاجتماعية.. كذبتِ كي لا يشير إليكِ الناس بأنكِ أقدمتِ على غير المألوف.

ـ بالضبط؛ كذبت لهذه الأسباب، ولكن من أجلكِ أنتِ لا من أجلي أنا.

ـ أنتِ وأبي أو من ادعى حتى مات أنه أبي، خططتما بدون التفكير فيّ.. أليس من حقي أن أعرف من أهلي؟ بكم اشتريتماني؟ ومن آخر شريككما في الكذبة؟ من يعرف عني ما لا أعرفه أنا؟

ـ اشتريناكِ؟ أنا وأبوكِ دفنا هذا السر ولا يعلمه أحد.. لا تقسي عليّ ولا تقسي على من ليس هنا ليدافع عن نفسه.. لا تجعلي غضبكِ ينطقكِ بما لا تعنينه وينسيكِ حبنا لكِ.

قامت من كرسيها الذي كانت قد جلست عليه، تمد يدها تحاول أن تحتضنني فدفعتها عني لتسقط على الكرسي من جديد فاقدة الوعي. أيام طويلة كئيبة في المستشفى وهي في حالة يرثى لها، ويوم أفاقت نظرت إليّ بحسرة ممتزجة بالعتاب ونطقت أخيرًا:

ـ أنتِ حياتي.

يطل عليّ وجه أبي الذي لم أرَ منه يومًا إلا الحنان المتدفق. لم يغضبني يومًا، ولم يكل عن تحقيق أي طلب أو أمنية لي مهما صعبت. أوجه الغضب لنفسي فأعاتبها أنها ثارت على من لم يضنا عليها. ولكني أعود فأشعر بظلم شديد أنهما أخفيا عني ما حق لي معرفته. أصبحت محتارة أشك في كل من أحب؛ هل أنا بنت شهيد حرب أكتوبر العميد كمال زين الدين من سلاح المهندسين؟ أمي، أو بالأصح من ربتني، تدعي أن البنوة لمن اجتهد وتعب فأكاد أتفق معها قبل أن أستوقف نفسي من جديد وأتذكر من حملتني؟ ولكنها حملتني ورمتني؛ فهي أيضًا ليست بأم!! أشعر أن الجنون أصابني وأنا فاقدة الهوية ضائعة

لا رابط لي بأحد.

حين لامست عجلات الطائرة أرض المهبط، اشتد حنقي على هيلموت. كانت حياتي طبيعية حتى زارني في هذا اليوم التعيس. حين بدأ يحكي بدأت أضحك من سخافة ما يقوله. ما لبثت الأوراق التي أخرجها من حقيبته أن محت الضحك والابتسام من حياتي حتى لحظتي هذه. قسيمة زواج وقسيمة طلاق وورقة إشهار إسلام وخطاب قصير موقع من أبي وأمي يطمئنان ليليان أن ابنتها في أحسن حال، وأنهما وفيا بعهدهما وأسمياها على اسمها المصري: ليلى!

تفور بداخلي مشاعر غريبة فأعقد العزم على ألا أغادر المطار، وأن أعود على أول طائرة من حيث أتيت. أعود وأقفل باب الكوابيس وأعيش من جديد الحياة التي اعتدتها دون مدخلات مجهولة لا أعلم إلى

أين سترميني. ولكن هل من الممكن تجاهل ما أصبحت أعرفه؟ هل سأستطيع يومًا أن أعيش كما اعتدت دون أن أسبر غموض أصلي ومعرفة من أتوا بي لهذه الدنيا؟ هل سأتمكن من المضي قدمًا دون أن أكشف لماذا لفظوني وتركوني لغيرهم؟ لا بد أن أعرف ما جعلهم يتخلون عما يعتبره معظم الناس أغلى ما وُهبوا!

ثم من هي موكلة هيلموت التي رفض الإفصاح عن صلتها بي، والتي لا بد أني سأقابلها في برلين؟ هل هي أمي الأصلية تغالي في جرمها؟ ثم لماذا أخبرني أنني لا بد أن أقابلها في أقرب فرصة، لأنه ليس هناك وقت؟ ليس هناك وقت لماذا؟ هل أتيت بدافع الفضول؟ أم أتيت غاضبة ناقمة أبحث عن إجابات في الأغلب ستوغر جروحي؟

*** * ***

يشتد عليّ الألم فتبدأ أصابعي في البحث عن زر مضخة المورفين كي أدوسها لتدس المخدر في عروقي. حين أتملكها في كف يدي أطيل الضغطة لتتناسب مع شدة ما أعاني.

ـ كل ما نستطيع فعله أن نخفف ألمكِ، ولكن يجب أن تعلمي أن لا أمل في الشفاء.

هكذا أطلعني الطبيب على اقتراب النهاية، بعدما قضيت شهورًا في المستشفى وهم يبحثون عن علاج اتضح ألا وجود له.

يسري المسكن في جسدي ليتوارى الألم، وتبدأ خيالات الماضي تداعب ذاكرتي الواهنة. كلما ضغطت زر المضخة يأتيني صوت الطلقة التي تشير لبدء سباق سيول. من تحت غطاء سرير المستشفى، تتحرك قدماي متصورة أنها تدوس البدال لتدفعني نحو المقدمة. أتجاوز ثلاث أو أربع متسابقات ممن تكاسلن في بدايتهن، قبل أن أشعر بارتطام عنيف في عجلة دراجتي الخلفية. بالكاد أدير وجهي فأرى إحدى منافساتي وقد اندفعت دراجتها تصطدم بي، لأسقط على بعد عدة أمتار من حيث رقدت دراجتي. حاولت أن أقوم من مرقدي، ونجحت في ذلك رغم الألم، ولكنني سقطت من جديد مع أول خطوة. في لحظة واحدة تبدد الحلم وتهشمت عظمة الفخذ وانكسرت آمال المنافسة على أسفلت كوريا. لم تكن حادثة سيول مقصورة على انتهاء منافساتي الأوليمبية، فتمادت الآثار حين أخبرني الأطباء عند العودة إلى الوطن بأنني أصبحت معاقة، وأن المنافسات الرياضية حقبة وانتهت من حياتي. لم يدروا أنها لم تكن مجرد حقبة، بل هي حياة كاملة أعلنوني أنها خلت بي وأدارت ظهرها لتجري نحو أخريات.

ولكنني اعتدت ضربات القدر، وتمرست على عدم رضاء الحياة عني. في البداية تركني أبي وأمي قسرًا كما علمت مؤخرًا. وحين اختارني آخرون لأكمل أسرتهم سرعان ما فارقوني كسابقيهم. المضحك أنه في الحالتين كان «النظام» هو مسير أقداري ونابذ من يرعاني. هكذا علمت بعد عودة ألمانيا متحدة، ومن ملفات الستازي التي أصبحت في متناول يد من يستعلم. قتلوا سيپ بينما يستجوبونه، وهيلدا أبعدوها عبر السور نحو الغرب ومنعوها من أي محاولة للبحث عني. أما عضو الحزب وامرأته فقتلوهما حين عارضاهم؛ وأبلغوني وهم يرسلونني إلى دار الرعاية أنهما راحا في حادث سيارة. حين حصلت على الملفات، ظننت أن كاتبًا نابغًا خياله ممتد كتب سيناريوهات حياتي كي تصلح لأفلام درامية. لعل هيلدا هي من تبوأت دور البطولة في مأساتي الإغريقية، فهي التي ظلت في محاولات مستميتة للبحث عني من واقع مخاطبات استمرت عقدين لأجهزة الدولة في ألمانيا الشرقية تطالب بإعادتي. لم تفقد يومًا أمل أن تجدني كما كتبت في مذكراتها التي دأبت على تدوينها، والتي أعلنتني في مقدمتها أنها موجهة لي حتى لا تفوتني أحداث يوم من أيام فرقتنا. اختارت الدراما أن تكتمل فتموت هيلدا قبل سقوط الحائط بأيام.

بعد العودة من كوريا، تجاهلني صناع الأبطال بعد أن صرت غير ذات جدوى لأهدافهم. وفي بلد همه البطولة تصبح المعاقة عبئًا، ويفرض عليها العيش في الهامش ولا يجوز لها أي تطلعات. من بطلة مكرمة أضحيت عاملة النظافة العرجاء بأحد المكاتب الحكومية. حين صدر قرار توظيفي طُلب مني أن أسجل شكري للحكومة على حسن رعايتي رغم إصابتي.

العرج لم يكن نهاية المطاف، إذ بدأت أعراض ذبول الجسد تنسحب رويدًا رويدًا على الجسم الممشوق الذي كان. من كثرة ما أصابني من آلام متفرقة في كل أجزاء جسمي، لم تعد بي قدرة على العمل. لما أصبحت زائرة مستديمة للمستشفيات، اكتفى الأطباء بمط شفاههم وهما يطلبون مني ألا أبالغ في وصف الأعراض. لما تهدم الحائط وجدت مروءة عند أطباء الغرب، لكنهم وجدوا أن الأمراض توطنت والآلام استشرت، وأنني عبرت نقطة اللاعودة تجاه موت غدوت على مشارفه، فأعلنوني مشفقين:

ـ للأسف، تجرعتِ عبر السنين ما تسبب الآن في انهيار جسدك.

برلين ـ ألمانيا

3 نوفمبر 1992

استقبلني هيلموت في صالة الوصول، حمل حقيبتي وتبعته إلى سيارته بموقف المطار. حين ركبنا السيارة، فاجأني بأننا في طريقنا إلى المستشفى. في اقتضاب شرح لي أن من بعثت في طلبي مريضة، وأنها تنتظرني هناك. كالعادة استمسك بالتزامه تعليماتها بألا يفصح لي عمن تكون. ظللنا في صمت مطبق طوال رحلتنا، حتى وصلنا وترجلنا من السيارة. كان بي غليان وغضب شديد من فرط الغموض الذي فرضه علي المحامي ومن أرسلته. ملأني الحنق عليها لما تسببت فيه من انقلاب لحياتي، وشعرت أني سأنفجر في وجهها حين أراها.

وصلنا المستشفى وأخذنا المصعد من فورنا للدور الثالث على ما أظن، ومنه تقدمني المحامي إلى غرفة في نهاية الممر. حين فتح باب الغرفة ودلف إلى الداخل تسمرت مكاني، بينما هو ممسك بالباب يومئ لي برأسه لكي أدخل. أدركت أن هذه فرصتي الأخيرة للرجوع، واعتراني خوف مما ينتظرني بالداخل. استمررت متوجسة مشلولة في مكاني، أنظر إلى الواقف أمامي وقد احتار هو الآخر في سبب جمودي. مرت عليّ لحظات سرت فيها قشعريرة من أطراف قدميّ لأعلى رأسي، شعرت معها بدوار وارتجاف في رجليّ حتى ظننت أني أسقط على الأرض. حاولت أن أهدئ أنفاسي المتوترة وقد قبضت بقوة على يديّ، ثم عزمت أمري وخطوت إلى الداخل.

وجدتها مضطجعة على السرير المرفوع ظهره، واجلة هي الأخرى تنتظر دخولي. لم أستطع إلا أن أشخص في وجهها النحيل الشاحب وعينيها الجاحظتين. أطلت النظر إليها أحاول التحقق في تقاطيعها، فشتت تركيزي صلعة رأسها. بالتأكيد تسببت نظراتي المشدوهة في حالة عدم ارتياح ملأت أجواء الغرفة، قرر هيلموت أن يقطعها بقوله:

ـ ليلى، هذه جريتا ابنة خالتكِ هيلدا.

رنت في ذهني كلماته:

ـ جريتا.. هيلدا.. خالتي.

بصوت أجش أضاف لغرابة ما ألاقيه، حيَّتني:

ـ أهلًا ليلى.

ثم استرسلت:

ـ اعذري مظهري فأنا في آخر أيام مرضي.. كنت أحب أن نتقابل وأنا ما زلت في رونقي.

ما زلت أحاول امتلاك زمام نفسي وتهدئة أنفاسي التي أرهقني تسارعها. ابتلعت ريقي وأخذت نفسًا عميقًا، وأخيرًا استطعت النطق بهدوء لم أتوقعه:

ـ من أنتِ؟ ماذا تريدين مني؟

ـ أنا جريتا.. أمي هيلدا أخت أمكِ ليليان.. أظن أن هيلموت أطلعكِ على الأوراق التي تثبت نسبكِ إلى ليليان.. وأظنكِ اقتنعتِ بها وإلا لما كنتِ هنا الآن.

ـ وأين ليليان؟ ولماذا اتصلتم بي الآن؟

ـ ليليان ماتت منذ خمس سنوات أو أكثر.. وهيلدا ماتت أيضًا..

لم يتبقَّ سوانا نحن الاثنتين من سلالة الچنرال شميدت.

ثم اصفرت ابتسامتها:

ـ وقريبًا جدًّا لن يتبقى سواكِ.

وعادت:

ـ لما علمت بوجودك كلفت هيلموت بالبحث عنك والاتصال بك، واتصلت بكِ فور توصُّله لمكانكِ.. البحث عنكِ على بعد آلاف الأميال لم يكن بالأمر اليسير، ولكن المستندات التي تركت منها ليليان صورا هي التي مكنتنا من الوصول إليك.

ـ ماذا تريدين مني؟

ـ لا شيء.. لا تملكين أي شيء أريده.. ظننت فقط أن من حقكِ أن تعلمي الحقيقة.

ـ ومن قال لكِ إن هذه حقيقة أود معرفتها؟

ـ تفضلين العيش في وهم؟

استمر استغرابي من صوتها الأجش وأنا أسمعها تسخر مني:

ـ أغلب البشر فعلًا يفضلون الحياة في الخيال.

ـ قلبتِ حياتي.

ـ عشت حياتي أبحث عمن أتوا بي إليها.. لم أتوقف يومًا عن التفكير في من يكونون أو لماذا يلفظونني.. لم أرتح حتى علمت كل التفاصيل ووجدت أنهم لم يتركوني، بل إني أخذت منهم عنوة.. أثناء بحثي، توصلت لخيط يربط قصتي بكِ، فظننت أنكِ مثلي تحتاجين لإجابات.

ـ لم أشعر يومًا أنني لفظت.. لا، دعيني أصحح لك: أنت جعلتيني أشعر أنني فعلًا منبوذة يوم أرسلتِ مندوبكِ.

دمعتُ وأنا أكرر:

ـ قلبتِ حياتي!

ـ لم أقصد ذلك بكل تأكيد.. لما توصلت إلى حقيقة أهلي نقمت على الدنيا أنها دعتهم يفارقونها قبل مقابلتي لهم واستمتاعي بوجودهم.

دمعت هي الأخرى:

ـ لعل بعض الأنانية دفعتني للاتصال بكِ: الاتصال برابطة الدم الوحيدة الباقية لدي.

ـ إذًا كنت تعلمين أنني لا أعلم شيئًا!! وأني أعيش حياة أو خيالًا كما تقولين محصنًا بعدم معرفة لا تضر.

تدخل هيلموت حين لم يعد هناك ما يقال:

ـ اجلسي يا ليلى.

جلست على المقعد المجاور للسرير أتطلع من جديد لوجهها الذي زاد شحوبه. قل غضبي بينما أرى البؤس الذي كانت عليه. طال صمتها وهي تتفحصني ثم ابتسمت:

ـ هناك شبه واضح بيننا.

مدت يدها إلى المنضدة، وشدت من عليها صورة أعطتني إياها:

ـ هذه صورتي قبل مرضي.. عندما كنت أجمل، وكنت ابنة خالتكِ التي تكبركِ بعامين، لا هذه العجوز البائسة التي تنتظر الموت.

نظرت في الصورة فوجدت شابة يافعة تمسك بيد دراجة وترفع بالأخرى كأس بطولة.

ـ كنت بطلة ألمانيا الشرقية في سباق الدراجات.

اتسعت ابتسامتها:

ـ شاركت في أوليمپياد سيول.

ثم ابتأست:

ـ شاركت للحظات قبل أن أصاب وتنتهي مسيرتي.. أو لنقل تنتهي حياتي.

قاومت مشاعر الشفقة التي بدأت تتملكني نحوها، فقد أردت أن أستمر غاضبة منها على تعريتها لكذبة، اقتنعت الآن أنها كانت الأفضل لي. أظنها لاحظت من تعبيرات وجهي أني لنت قليلًا عما كنت وقت دخولي غرفتها. صوتها الأجش ظل يزعجني كلما نطقت، ومع اندهاشي وجدتها تسألني:

ـ تستغربين خشونة صوتي؟

شعرت بدماء الخجل تلون وجهي، فسارعتُ قائلة:

ـ أبدًا.. أبدًا.

ـ هو مذهل ومحزن فعلاً فلا تخجلي من دهشتك.. إنه من أثر التيسترون.. الحبة الزرقاء.. ظللت أبتلعها يوميًّا منذ بلغت الخامسة عشرة على أنها فيتامينات.. ولكنهم لم يقولوا لي إنهم يحولونني دون موافقة مني لذكر.. ذكر مشعر صوته أجش، وبجهاز تناسلي نسوي.

سكتت برهة، ثم عادت تغمغم لنفسها:

ـ كان همهم الكئوس والميداليات.. ولو ضحوا بإنسان على درب البطولة.

نظرت إليّ من جديد وقد علا وجهها حزن:

ـ سنوات، وأنا سعيدة بالذي حولوني إليه.. من فرط سعادتي بالانتصارات لم أتساءل.. أنا أيضًا شريكة جرمهم.. غضبت فقط يوم تركوني على قارعة الطريق الذي سقطت عليه ومضوا يبحثون عن مسخ جديد.

وجدت نفسي أربت على يدها برفق، وقد تبلل وجهانا بالدموع التي انهمرت. لم أستغرب تحول حالي إلى التعاطف معها وهي تروي هذه المأساة التي هي حياتها.

ـ كمّ ما جعلوني أبتلعه تسبب في انهيار جسدي.. بنيان البطلة أصبح هشًّا ضامرًا.. لم تتحمل أعضائي ما هاجمها من سموم.. لا يوجد مرض معين متسبب في موتي الوشيك، بل إنه انهيار عام وتام لكل أجزاء جسدي.. أتدرين الأكثر حزنًا: أن العالم كان يعلم بفعلتهم.. نعم كانوا يعلمون، ولكنهم اختاروا أن يصفقوا للإنجاز وللإعجاز كلما اعتلى أحدنا منصة التتويج.. لم يتدخلوا أو يصيحوا كيلا يفسدوا التوازنات.

كنت قد نسيت وجود هيلموت، ولكنه أعاد نفسه إلى الصورة حين تنحنح وقال:

ـ جريتا؛ ألا تريدين أن تحكي لليلى عما تريدينه منها؟

ـ آسفة! لم أقصد أن أسترسل في رثاء حالي.. آسفة يا ليلى.. صدقيني لم أقصد أن أستعطفكِ بقصتي.

من جديد مدت يدها على المنضدة، فسحبت من عليها ظرفًا اهترأت أركانه من فعل الزمن:

ـ حين تعودين إلى المنزل، اقرئي هذا الخطاب.. كتبته أمكِ ليليان.. ستجدين فيه راحة وربما تفسيرًا لسبب بحثي عنكِ وبعثي في طلبكِ.

ثم أشارت لهيلموت قائلة:

ـ ناول ليلى الكمان.

وجدت المحامي يضع بين يديّ حقيبة آلة موسيقية بنية اللون، ويفتحها

لأجد بداخلها كمانًا خشبه لامع وأوتاره مرتخية بصورة ملحوظة.

ـ هيلدا، أمي، كانت عازفة كمان مشهورة وموهوبة.. هذا كمانها المفضل، وكما دونت في مذكراتها التي تركتها لي، هو كمان قيم جدًّا.. نعم تصوري أن هيلدا ظلت تكتب لي يوميًّا منذ فقدتني.. ستجدين مذكراتها ومذكرات ليليان أيضًا في البيت.. يجب أن تقرئيها لتعلمي أكثر عنهما.. ظلمهما الزمن ولكنهما كانتا طيبتين.. لهما أخطاؤهما ككل البشر، ولكنهما لم تؤذيا أحدًا..

شعرت جريتا أنها عادت تشط في الحديث من جديد، فاستوقفت نفسها وأخذت عدة أنفاس متتالية، ثم توجهت إليّ بطلبها:

ـ هذا الكمان كما علمت من مذكرات أمي، ملكيته لأمهاتنا نحن الاثنتين.. أريدكِ أن تعرضيه للبيع، فقيمته كما فهمت من كتابات أمي كبيرة.. أريد أن أترك نصيبي منه لمن عانوا مثلي من أجل بطولات وهمية.. لو جاء أجلي قبل البيع فوصيتي لكِ أن تتبرعي بنصيبي من أجل الضحايا الأوليمپيين من ألمانيا الشرقية.

جاءني صوت هيلموت يقول:

ـ سآخذكِ غدًا إلى خبير لتثمين الكمان، وقد يستطيع أيضًا معاونتنا في بيعه.

سانتياجو ـ شيلي

14 يوليو 1985

أختي الحبيبة هيلدا..

متى يصلك هذا الخطاب أكون قد فارقت الحياة ويكون محاميّ قد نفذ وصيتي بإيصاله لك. سامحيني على عدم محاولة الاتصال بك طوال هذه السنين، ولكني فعلت ذلك وأمنك ومصلحتك نصب عيني. لم يكن للفريسة المطاردة أن تحاول أن تبعث برسائل للعرين الذي يراقبه الصياد. كما تعرفين القضية المرفوعة عليّ لا يسقطها الزمن ومن اختاروا أن يتهموني استمروا في البحث عني وأيديهم كما تعلمين طولى. سامحيني إن لم أتصل بك طوال هذه المدة لكنني داومت على الاطمئنان على أحوالك من خلال الأوديسا وشبكتها في ألمانيا.

تجدين رفق هذا الخطاب مذكراتي التي دونتها والتي توقفت فيها عند مغادرتي لمصر التي تركت فيها قطعة مني. للأسف المرض العضال الذي أصابني أوقف قدرتي على الاستمرار في كتابة قصة حياتي لذا سأحاول هنا أن ألخص ما تبقى من حكايتي.

لم يطل مقامي طويلا في مصر بعد ولادة ابنتي ليلى، إذ عاونني كمال عزالدين في الحصول على تذكرة سفر إلى سانتياجو في شيلي تنفيذا لاتفاقه معي. وفي غضون أسابيع من الولادة ارتحلت إلى حيث سيصبح موطني إلى أن أموت. لا أعلم إن كان المصري كان يفي بوعده أم أنه كان يريد الخلاص مني، وهو يسعى بكل ما أوتي من سلطة وبكل ما لديه من اتصالات في أن يخرجني من بلده. رحلت يا أختي تاركة ابنة كنت أتمنى أن تكون لي بعد أن كدت أموت وهي تخرج من رحمي بعد أن تمكن النزف مني. نزف لم يجد معه الأطباء شفاء سوى استئصال رحمي وإنهاء أي وميض ولو ضعيف أن أحقق أمل الأمومة من جديد.

لعلك تتساءلين، ولك الحق، لم أخاطبك الآن وقد مر الزمن وشارفت الرحلة على الانتهاء. أخاطبك يا أختي لأنك لم تغيبي عن ذهني يوما ولأنك آخر رابطة دم لديّ. أخاطبك لأشرح لك أن ما منعني عنك هو رغبتي في ألا يصيبك أذى بسبب هذه الرابطة ولأنني، كما تربينا، لم أستطع ذلك من قبل بسبب الالتزام والعهد الذي كان عليّ. التزامي كما طلبت الأوديسا ألا أحاول أن أتصل بأي ممن يمكن أن يصل

مطارديني إليّ من خلالهم. فعلت ذلك من أجل ألا أتسبب في أذى لمن ساعدوني حين طلبت دون مقابل ولا سؤال. الآن حين أنظر إلى ما مررت به أجد أن حياتي كما أردتها أفسدها هذا الالتزام. التزامي في عملي منعني أن أبتعد حين عرفت مساوئ ما كنت جزءًا منه، وتعهدي لكمال وإيمان منعني أن أحاول أن أتصل أو حتى أستعلم عن ابنة تركتها رضيعة لا تعلم كم أحبها رغم أني تخليت عنها. المضحك المبكي يا هيلدا أن المرة الوحيدة التي لم ألتزم بها بواجبي تدحض ما اتهموني به. أتذكرين مائير جارنا؛ كان واجبا عليّ أن أبلغ عنه وكدت فعلا أفعل ذلك، ولكني يوم دخلت مكتب أيخمان لأخطره بنية اليهودي الهروب تلعثمت ولم أجد بي قدرة أن أكون سببا فيما قد يصيبه هو وأهله.

الأغرب يا أختي هو لما أصبحت مطاردة وكيف تحولت حياتي إلى هروب كبير. لم أكن سوى سكرتيرة بسيطة لأيخمان أنظم مواعيده وأضع ملفاته في مكانها. نعم كنت أستشعر عظمته وأنا أعمل إلى جواره، ولكن ألا تشعر كل فتاة تعمل إلى جانب ذي منصب عظيم بما شعرت نحوه. لم أعرف ولم يكن لي أن أعرف أي شيء عن الجرائم التي كانت ترتكب؛ وهل عرف عوام الألمان ببشاعة ما اُقترف إلا بعد أن اندحرنا في الحرب؟ هأنذا على فراش موتي لا أجد سببا لما آلت إليه حياتي سوى أن أحدهم قرر أن مجاورتي لأيخمان سبب كافٍ أن أجرم.

لما وصلت شيلي وجدت شعبًا طيبًا، بشراتهم دكنتها أشعة الشمس. الزمن هنا بطيء هادئ يكاد لا يكون له قيمة. مثلهم مثل أغلب شعوب الأرض فيما أظن يتطلعون إلى حياة أفضل وعلى سبيل ذلك مستمرون في استطلاع طرق شتى كي تصل بهم إلى مرادهم. مثلهم مثل أغلب شعوب العالم، الدين عامل أساسي في تكوينهم وحب وطنهم متغلغل بداخلهم. أذهلني في تكوينهم غرائبية أن استمساكهم بالدين يجعلهم يتوقون إلى العودة بآلة الزمن إلى وقت يؤمنون بأنه كان أمثل وأفضل. في الوقت نفسه تشتعل بدواخل أغلبهم رغبة أكيدة في الهجرة إلى حيث أصبح العالم أكثر تقدما والعيشة أفضل راحة كما وصلهم. وهكذا وجدوا أنفسهم محصورين بين الزمن والمكان يشل الأول محاولات الثاني نحو تقدمهم. ولكن هذا التقدم ينحصر في مظاهر خارجية يضيئها من آن لآخر مفكرون سرعان ما ينطفئ بريقهم متى أصبحوا مزعجين.

أهل شيلي مثلهم مثل أغلب بني البشر لا يتعلمون من دروس التاريخ ويجدون إلهامهم في صورة زعماء يحتالون عليهم بابتسامة تختفي يوم يتمكنون، ومن بعدها يبدأ التنكيل بمن يجرؤ على إعلاء صوته بالرفض. هذا ما فعله پينوشيه بهم على مدار السنين. أتدرين

ما المضحك يا هيلدا! أن هذا الطاغية لم يعطه كرسي الحكم سوى زعماء الدول التي تسمي نفسها العالم الحر والتي تدعي أن غايتها أن تكون نبراس نشر الحرية في الأرض. أعطوه الكرسي وحافظوا على مكانه برغم جرمه ما دام يحقق أهدافهم ثم أزالوه لما انتهى دوره. وحين حان ميعاده لم يعد أحد يتذكر له سوى مثالبه، إذ محوا ما كانوا يتشدقون به من أمجاده. تماما مثل الفوهرر. فأجيال اليوم لم يصلها إلا جرمه

ولا يعرفون عنه سوى البشاعة. من يسطرون التاريخ لم يسألهم أحد لما ارتضيناه زعيما ولما سعدنا بقيادته لنا. لا يذكر أحد أنه وفر للملايين فرص عمل فقضى على بطالة أنهكت شعبنا. ولم يكتب المؤرخون عن حربه ضد الفساد ورعايته لصحتنا ولا على إنهائه سيطرة المرابين وتحكمهم في اقتصاد بلادنا. ولكن هكذا التاريخ كما يقولون يدين عند تدوينه للمنتصر الذي يسهب في إطراء انتصاره ولا يمل من قدح من سحق. أو لعلها طبائع البشر التي تختار أن تزين انتصاراتها وتهين من نفق بلا هوادة وتمنع عنهم فرص الدفاع عن النفس.

خلاصة تجربتي يا أختي أن البشر أمرهم عجيب. تتملكهم عقيدة أيًا كان نوعها فيندفعون بكل جوارحهم من أجل فرضها على غيرهم قسرًا. عبر التاريخ تنوعت قناعاتهم وتوجهاتهم ومع كل تغيير يضحون بكل ما هو ثمين بما فيه حياتهم من أجل ما آمنوا به. يَقتلون ويُقتَلون تنفيذا لإشارة من يتقدمون الصفوف وفي النهاية يصبح من مات مجرد أرقام لا كنية لهم. يدفع الجندي ضريبة عظمة القائد راضيا ويضحي بنفسه من أجل أن يسجل التاريخ اسم زعيمه. لما تندمل الجراح ويتوقف النزف ما يلبث البشر أن يعودوا من جديد مُقدمين خلف زعيم مفوه آخر يهدون أرواحهم قرابين لتحقيق حلمه الذي باعه لهم.

ولكن كفاني سردًا في حكمة علمها لي الزمن ودعيني أكمل لك قصتي في شيلي. القدر لما جاء بي إلى هنا قرر فيما يبدو أن يكون رحيما بي وأن يوقف مسلسل عذابي. لم يمض وقت طويل إلا وقابلت أرمل من أهل البلد تركت له زوجته ولدين صغيرين. أحبني وعشقت أنا طيبته وحبه لي فسرعان ما أصبحت زوجته وأمًا بديلة لأولاده. أستطيع أن أقول أنه باستثناء حرماني منك ومن وطني فإن حياتي كانت سعيدة بلا أمواج عاتية. عوضني القدر بأسرة بذلت جهدي أن أجعلها سعيدة وهأنذا على وشك مفارقة الحياة وهم يحيطونني بمحبة، ويودعونني وداع الأبناء لمن خرجوا من رحمها. لم يشعروني يوما أني دخيلة عليهم ولم أبخل أنا عليهم يوما بحبي وعاطفتي. عشت سعيدة يا هيلدا وأترك الدنيا تاركة فيما أظن إرثًا من الرضا والسعادة.

والقدر يعطيني تلك السعادة اختار أيضا أن يجعلني أحد أسباب نجاح زوجي لويس ليصبح أحد أهم رجالات الصناعة في وطنه. وقد اتفقت معه على أن ترثي مليون مارك من تركتي سيقوم المحامي بإجراءات تحويلها إليك. لعل في هذه الهدية المادية تعويضا مني لك ولجريتا عن سنوات البعد التي فُرضت علينا. أتدرين يا هيلدا، لطالما حلمت بجريتا وتصورتها الآن شابة لها جمالك مفعمة بالحياة، مقبلة عليها تحقق ما حرمنا نحن من آمال وئدت في صدورنا بسبب ظروف لم تكن لنا أيد في صنعها.

لي طلب عندك يا هيلدا، أن تحاولي الوصول إلى ليلى. نعم فالالتزام كان عليّ، وبوفاتي أكون قد التزمت بما وعدت ولا التزام عليك. إذا نجحت في العثور عليها قولي لها أنني أحببتها برغم قصر الفترة التي عرفتها فيها وأنها استمرت جزءا منِّي وأنني لم يمر يوم إلا وداعبت خيالي. تلمسِّي لي عندها العذر في تركها واشرحي لها أن ما فعلت بدا حينذاك الأفضل لها. قولي لها أنني لم أردها تعيسة ولا طريدة وأن ما لجأت إليه كان الحل الأمثل لمن كان على حالي.

وإن وصلت إليها فأرجو أن تعلميها أنني قد أوصيت لها بمليوني مارك. ليس هذا تعويضا فلا عوض عما حرمنا منه القدر، ولكنه ما أظنه سيعوضها ولو بقدر بسيط عما تمنيت طول عمري أن أسبغ عليها من سعادة.

أحبك يا أختي وأرجو منك السماح على عدم قدرتي أن أكون جزءا من حياتك كما تمنيت..

إلى اللقاء حبيبتي في مكان وزمان أرجو أن يكونا أفضل..

أختك المحبة

ليليان شميدت

برلين ـ ألمانيا

14 يناير 1993

استمرت الصحافة الألمانية في متابعة موضوع الكمان الستراديڤاري ومزاده وقضيته دون كلل على مدار الأسبوع. الدراما التي صاحبت الثمن الخيالي الذي حصله المزايدون ثم الوقف الدرامي للمزاد أهلَّا القصة لأن تكون في صدارة الصحف والبرامج التليفزيونية. لم يكن الاهتمام داخل ألمانيا فقط بل امتد إلى شتى أنحاء العالم بعد أن أصبح جزءا متفردا من التراث الإنساني والفني محل نزاع وغدت أحقية ملكيته محاطة بكثير من الضبابية.

بخطوات هادئة، تقدمت السيدة السبعينية نحو مكتب محامي برلين العام. ما زالت تقاطيعها جذابة، يزيد جمالها شعرها الأسود الداكن، الذي استعانت منذ سنوات بالصبغة كي تحارب الشيب الذي غزاه. في الأسابيع الماضية وجدت نفسها، دون رغبة منها، في قلب إثارة الحدث الذي أصبح حديث ألمانيا والعالم. كانت قد ظنت أن التاريخ قد سكن في ركنه، وأن الذكريات الأليمة قد قررت أن تستمر في المقعد الخلفي لكي تتوارى فيه. حين بدأت تتابع التقارير الصحفية عن كمان ستراديڤاري، كان ما شدها إثارة القصة، ولم تدرِ أنها ستصبح جزءًا منها. حين بدأت الأحداث تتتابع والأسماء تُكشف، وجدت الأيام تعود بها لأيام شبابها، وإلى ذلك الشارع الذي ترعرعت فيه. لما ذُكر اسمي ليليان وهيلدا شميدت، وأن بنتيهما هما عارضتا الكمان، صحت من جديد ذكريات أبيها وأمها ودكان رهونات مائير.

وقفت أمام سكرتيرة المحامي العام وطلبت منها:

ـ لدي موعد مع المحامي العام بخصوص قضية الكمان.. اسمي راشيل مائير.

طلبت منها السكرتيرة الانتظار حتى تبلغ مديرها بقدومها، فجلست على المقعد الجلدي الموضوع أمام المكتب. عادت الذكريات من جديد تتسابق في ذهنها. ابتسمت وهي ترى صور الشارع القديم ومنزل العائلة، وأيامها كطفلة ثم كفتاة جميلة يسعى لنيل رضاها شباب الحي. تذكرت الأيام التي كانت تساعد فيها أباها في العناية بالدكان، وكيف كان يعلمها تجارته ولا يمل من استعراض الرهونات الجديدة التي حازها، وكيف كان يفخر بالصفقات التي يبرمها. تقلصت

ابتسامتها حين جرها ذهنها إلى أيام صعود هتلر وجوقته، وتمكنهم من حكم ألمانيا. لم يجعل الفوهرر عداءه لطائفتها سرًّا، وبدأت القوانين المعادية لليهود تستقر الواحد تلو الآخر حتى صاروا منبوذين بحكم القانون . فُرض عليهم أن يعلنوا عن أنفسهم، وضاقت عليهم الدوائر فأصبحوا مواطنين من درجات أدنى في وطن لم تعرف غيره. أصبح الخوف من المستقبل هو المسيطر على أحاديث والديها، بينما تتوالى أخبار القبض على المعارف والأقارب وترحيلهم. في البداية، استمسك أبوها بفضيلة الصبر وأعلن أنه لم يقترف خطأً وسيظل على التزامه، وبهذا سيأمن شرور الرايخ. ولكن الأحوال تفاقمت، مما دفعه في التفكير في كيفية الهروب من وضع جحيمي غدت نهايته محتومة، خاصة مع اندلاع الحرب وارتفاع صوت العداء لمن اختارهم هتلر كي يكونوا عدوه الداخلي، أصحاب المؤامرة الكبرى ضد ألمانيا.

صاروا كفئران تبحث عن مخرج من مصيدة تضيق عليهم أسوارها. يبحثون عن مهرب فتسد أبواب المرور يومًا بعد يوم. حتى جاء ذلك اليوم حين دخل عليهم مائير مستبشرًا حاملًا إذن السفر الذي نجح جارهم شميدت في استخراجه. جمعوا ما قل من متاعهم وخرجوا يتلمسون بداية الطريق من برلين إلى ميونيخ مع طلوع الفجر. كان التصريح يسمح لهم بالوصول إلى عاصمة باڤاريا، ومن هناك كانت الخطة أن يستكملوا طريقهم إلى سويسرا، من خلال شبكة تهريب اليهود التي أخبرها والدها بأنها تنتظر وصولهم. حين وصلوا إلى ميونيخ، اختبأوا في بدروم أحد بيوت المتعاطفين الألمان ممن تبقت لهم شجاعة أن يناهضوا ضيم الحكام، ضد من اختاروا أن يضطهدوا ويطاردوا أينما كانوا.

ذكريات ذلك القبو المظلم والأيام التي بدا أنها لن تنتهي فيه لم تفارق راشيل يومًا. رائحة الظلام ورطوبة المكان الذي ازدحم بعائلتها وعشر أو أكثر ممن أصبح أملهم متلخصًا في الوصول إلى أمان سويسرا، استمر في إزكام أنفها رغم مرور عقود على حبستها فيه. يصيبها نفس الجزع لما تتذكر ذلك الصباح الذي انبعث فيه الضوء حيث اختبأوا، ليجدوا الجستاپو يقتحم مخابئهم ويسوقونهم لعربة النقل التي انتظرتهم بعد القبض عليهم. لم تكن هذه أسوأ مشاهد الكابوس الذي عاشته، إذ تبع ذلك ترحيلهم لأوشڤيتز وفراقها الأبدي لأبيها، ومن بعده أمها. لم تعد لفظة الكابوس مناسبة كوصف لما عاشته، ولا للأيام التي صارت طلتها عليها انتظارًا لأن تكون الأخيرة في عمرها. فارقها الكثيرون ممن شاركوها سجنها، واختار القدر لها أن تصبح من الناجين.

حين استعادت حريتها، قطعت على نفسها وعدًا ألا تندثر أهوال ما

عانته مع قومها يومًا، وأن تستمر في حكي مأساتها ما دامت بها حياة. استكملت دراستها حتى حازت الدكتوراه وأصبحت أستاذة التاريخ اليهودي في جامعة برلين. درست الأجيال الظلم الذي ناله اليهود على يد هتلر، وكتبت قصتها في معسكرات الموت في كتاب حقق أعلى المبيعات. مرت السنون وهي وحيدة لا رفيق لها وهي مستمرة في حمل رمحها من أجل ما كرست حياتها له.

حين قابلت شيمون ڤايتسمان في الأسبوع الفائت، طال الحديث بينهما. جمعهما نفس المقهى الذي تقابلا فيه قبل سنين.

ـ تذكرين أني تحدثت معكِ منذ ما يقارب الثلاثين عامًا.

ـ نعم تحدثت معي وقتها عن ليليان شميدت.

ـ وعدتيني أن تردي عليّ ولم تردي حتى اليوم.

ـ ما طلبته مني وقتها كان سيجعلني أشهد بما لم أعلم! لم أرد أن أشهد ضد إنسانة لا أظنها شريرة.

لاحظت راشيل صدمته من ردها حين طال صمته؛ فبادرت تلطف الأجواء:

- لا تزال تصطاد النازيين.. أتابع أخبارك وانتصاراتك.

ـ لم أندم يومًا على عمر أمضيته في هذه القضية.. الوحشية التي عشناها على أيديهم أوجبت ألا نتركهم يفلتون بما فعلوا.. المحزن أن صوتنا خفت من جديد والناس نسوا معاناتنا.. لا يمكن أن نسقط من ذاكرة الأجيال.. لا بد أن نستمر في تذكيرهم بما اقترف أجدادهم وآباؤهم.

ثم أخذها سريعًا لما أراد أن يطلبه:

ـ بالتأكيد سمعتِ عن الكمان الذي سيعرض في المزاد.

ـ نعم.

ـ وتعرفين أن أباكِ كان مالكه الأخير قبل أن يصل لأيدي آل شميدت.

ـ نعم.

ـ تقدمت ببلاغ للمحامي العام بأن هذا الكمان من ممتلكات أهلنا التي صادرها أو استولى عليها النازيون وأذنابهم بغير وجه حق.. هذه الآلة القيمة في الأغلب انتزعها الجنرال شميدت قسرًا من والدك، وبالتالي هي من حق قومنا .. قد يكون الكثيرون من فلول النازي قد هربوا، وآخرون يحتمون بتقدمهم في العمر، لكن واجبنا هو أن نستعيد ما نقدر عليه.. ألا توافقينني؟

اختارت راشيل ألا تصحح له تصوره عن كيف آل الكمان إلى عائلة شميدت. جزء منها لم يرد أن يدخل في جدال عقيم مع ڤايتسمان لو شعر أنها ستفسد خططه.

قطع شريط الذكريات الذي بدأ يغزو ذهنها وهو يسألها:

ـ أتدركين قيمة هذا الكمان؟

ـ ملايين.

ـ بالضبط.

سكت طويلًا قبل أن يستكمل حديثه وهو يرشف من كوب الماء الذي أمامه ويعود ليمسح العرق الذي تصبب على جبينه. لم تفهم راشيل سبب توتره البادي واختارت أن تظل على صمتها منتظرة خطوته التالية. لم تفهم لم توجست مما كان على وشك قوله ولكنه إحساس تملكها.

ـ أنا أيضًا متابع لكِ ولأبحاثكِ وكتاباتكِ، وأعرف أنكِ بطريقة مختلفة قد كرست حياتكِ لقضيتنا.

استطرد في حديثه وأطال وهو يستفيض في شرحه لها عن خطته وتوقعاته لنهايات محتملة لقضية الستراديڤاري الثمين. توجهه وطرحه انصب على المكاسب المحتملة من وراء الآلة الموسيقية الثمينة. أخذ حديثه منحى مفاجئًا لم تتوقعه فاختارت صمتا مطبقا تاركة له فسحة الإسهاب فيما هو رام إليه. لم تشعر أنها بصدد انتصار لقضية قومها بل شعرت أنها تستمع إلى شروط صفقة مالية يستعرض ڤايتسمان عليها أرباحها المتوقعة كان أكثر ما استغربته في حديثه هو أنه كان يعلم أن الكمان كان فعلا هدية من مائير لشميدت، وأن الأخير عاون عائلتها في الهروب. حين سألته كيف توصل إلى هذه التفاصيل، فسر لها ذلك بأنه وقت اعتقاله في معسكر أوشڤيتز قابل من كان يعرف مائير الذي حكى له قصته مع شميدت والكمان.

ـ وكما تعرفين لم يكن لنا سوى الحكايات نتناوب سردها في معسكرات الموت. في ظلام الزنازين المغلقة تناوبنا همس حكاياتنا لعل أحدنا يعيش ليرويها. لم يكن أي منا متأكدا أنه سيكون حيًا في اليوم التالي فأصبحنا كمن يفرغ ذاكرته للآخرين حتى لا تنقطع خيوط الذكريات مع من سيصيبه الدور منا.

مثلما أنهت لقاءها به قبل ثلاثة عقود، أنهت حديثها معه على وعد أن تفكر وتعود إليه. لم تسر إليه أن لقاءهما الأول لعب دورًا كبيرًا في تشكيل حياتها. رأت فيه يومها مناضلاً من أجل قضية يشتركان في آثار آلامها، فاختارت أن تناضل هي الأخرى وأن تسلك طريقًا مختلفًا عنه، آمنت أنه الأكثر فائدة للأجيال التالية كي لا ينسوا.

قطعت سكرتيرة المحامي العام سيل الأفكار الذي ازدحم به ذهنها لما قالت:

ـ تفضلي.. سيراكِ الآن.

برلين ـ ألمانيا

18 يناير 1993

جلست ليلى أمام المذيع في استديو إذاعة برلين، في انتظار بدء الحلقة التي قبلت أن تكون ضيفتها. بدا عليها التوتر والندم حتى إنها فكرت في التراجع عن الحديث الإذاعي الذي أصر عليه هيلموت. كان منطق المحامي أنها يجب أن تتكلم وتدفع اللغط والأقاويل الدائرة حولها، بعدما صارت قضية الكمان مستحوذة على الرأي العام.

تحسست السماعات التي احتضنت أذنيها لما أشار إليها المذيع أنهم على وشك البدء، وانتصبت في كرسيها بنوع من التحفز. وكأنها أمام الكاميرا مرت بنظرها على فستانها الأسود القصير، ومدت يدها تتأكد أن شعرها المرفوع مرتب.

- أهلاً بكم مستمعينا مع حلقة جديدة من برنامجكم «أحداث المدينة». اليوم معنا ضيفة من طراز خاص قصتها متشابكة، ولكننا نجحنا في إقناعها أن تحدثكم من منظورها عما تابعتم في الصحافة بخصوص كمان الستراديڤاري. حكاية مثيرة سنحاول اليوم كشف جوانبها وسبر أغوار غموضها.. معنا اليوم السيدة ليلى عز الدين.. ليلى تتكلم الألمانية بطلاقة حيث تخرجت في مدرسة الراهبات الألمانيات بالقاهرة.. لنبدأ حوارنا..

ليلى كيف حالك؟ أوقات مثيرة تمرين بها هنا في برلين.. بدايةً دعيني اسألك: كيف أصبحت جزءا من هذه القضية؟

ـ لم أكن أدري أنني حين آتي إلى برلين سأكون جزءا من أي قضية.. أتيت هنا باحثة عن أصولي بعد أن أخطرني المحامي أن أمي الأصلية ألمانية.

ـ إذا لنبدأ من هذه النقطة: أنت مصرية وعشت طوال حياتك في مصر؟

ـ نعم، وأظنني لا أزال مصرية لم يتغير بي شيء.. أعلم الآن أن أمي كانت ألمانية، وأنها ولدتني حين كانت في مصر، وتبنتني عائلتي هناك؛ هم من عرفتهم وسأظل أعرفهم كأبي وأمي.. كما قالت أمي المصرية حين واجهتها بما اكتشفت: الأم والأب هما من رعيا وربيا.

ـ أجد في صوتك نقمة أو لنقل حزنا من أمك التي ولدتك.

ـ بالتأكيد، لا بد أن يحزن وينقم من يجد نفسه في موضعي.. ولكن بعد تقبلي للوضع بدأت ألتمس لها العذر فيما اختارت أن تفعله.

ـ هي كانت هاربة من قضية متهمة فيها بارتكاب جرائم، كنازية.. عملت لأطول وقت مساعدة لأيخمان؛ أليس كذلك؟

ـ أظنها قضت حياتها تكفر عما قد تكون اقترفته، لو كانت ارتكبت جرمًا.. قضت عمرها هاربة خائفة مطاردة، لا تستطيع تواصلًا مع من تحب خوفًا من مطارديها، وخشية على أهلها من أن يُضاروا بسببها.. أظنها كفرت عن ذنوبها من خلال هذا الهروب.

ـ ولكن جرائم النازية كانت شنيعة؛ ألا تتفقين معي؟

ـ بلا شك، هي من أشنع ما ارتكبته البشرية من جرائم.. السؤال هنا: هل ارتكبت أمي جريمة بالفعل؟ ولو فرضنا أنها اقترفت ما اتُّهمت به، ألسنا بصدد اتهام جندي لمجرد تنفيذه تعليمات قيادته؟ هل حاكم العالم كل الجنود الذين اؤتمروا بالقتل؟ وهل كان بيد الجنود رفض الانصياع للأوامر؟

ـ تستخدمين منطق من يريدون غلق الملفات.

ـ في الحقيقة هذه الملفات لا تخصني، ولكني أطرح فقط ما طرأ على ذهني وأنا أتعامل مع ما وصلني عن أمي.

- إذا دعينا من الحديث الشائك عن النازية ولنذهب إلى الكمان.. كيف وصل إليك هذا الكمان الثمين؟

ـ الكمان أهداه جار لعائلة أمي في برلين إليها ولأختها هيلدا.

ـ أهداه؟ أأنتِ متأكدة من ذلك؟

ـ نعم، الوثائق القانونية تثبت ذلك.. سجل محل الرهونات الذي كان يمتلكه السيد مائير جارهم مدون فيه بوضوح وبخط يده، انتقال الكمان من ملكيته لملكية أمي وأختها على سبيل الهدية.

ـ ولكن هناك من قدم بلاغًا يشكك في تلك الوثائق.

ـ نعم هذا صحيح.. تقدم أحد متتبعي النازي ببلاغ فحواه أن الآلة الموسيقية انتقلت قسرًا إبان حكم النازي، وبالتالي فحوزتنا له تعتبر اغتصابًا للحق.

ـ والآن حُفظت القضية.. هل اقتنعت النيابة بسلامة موقفكم بموجب الأوراق التي بحوزتكم؟

قبل أن تجيب ليلى قاطعها المذيع:

ـ دعونا نذهب إلى فاصل إعلاني قبل أن نستمع من جديد إلى إجابة ليلى ونعرف منها مصير الكمان.. ابقوا معنا.

تنفست ليلى الصعداء مع التوقف، وأخذت تهدئ من نفسها وقد ازداد توترها من تتابع أسئلة المذيع. استرجعت في ذهنها الإجابات التي حضرتها مع هيلموت وجريتا حين توقعوا سير الحوار. أفادها كثيرًا تخصصها في العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية، وعملها منذ تخرجها مع إحدى المؤسسات المتعاونة مع مفوضية الأمم المتحدة للاجئين بالقاهرة. نفرت عروقها وهي تشعر أنها تدافع عن قضايا لطالما شغلتها. رتبت أفكارها وجهزت ردودًا لم تدرك أنها ستدلي بها يومًا على الهواء. عقدت العزم على أن تسأل هي المذيع، لماذا يترك العالم المختلين يحكمونه، ومن يعوض ضحاياهم عن شططهم وجنونهم. ستذكر عيدي أمين، وبوكاسا والقذافي وصدام، وپينوشيه وپول پوت وغيرهم من الحكام، الذين استمرت الحكومات في التعامل معهم على الرغم من دمويتهم ودون مساءلة. عاد إليها هدوؤها وأحست أنها قوية بثقافتها، وأن أداءها في الحوار جيد، فازدادت ثقة وهي تستعد لجزئه التالي.

ـ هانحن قد عدنا ومازالت ليلى عزالدين صاحبة الستراديڤاري الثمين معنا.. احكِ لنا كيف انتهت القضية إلى الحفظ؟

ـ بالإضافة إلى الأوراق التي بحوزتنا، كانت هناك شهادة في صالحنا أثبتت ملكيتنا للكمان.

ـ شهادة راشيل مائير؛ أليس كذلك؟

ـ نعم، جارة أمي في برلين وقت الحرب.. وأبوها هو من أهداهم الكمان الذي كان مرهونًا لديه في محل رهوناته.

ـ راشيل أستاذة تاريخ في جامعة برلين ومن ضحايا النازي وقضت عدة سنوات في معسكر أوشڤيتز.. ألم تستغربي أن تشهد لصالحكم؟!

ـ أصبحنا في زمن نستغرب حين يشهد أحد بالحق.. أظن السيدة راشيل أدلت بما أملاه عليه ضميرها وبما عرفت أنه الحقيقة.

- ولكنها تستحق الإثابة على شجاعتها وعلى أنها لم تستغل الموقف.. بالتأكيد تنوين مكافأتها على كرم أخلاقها.

ـ لا أظن أن من يأتي فعلًا أخلاقيًّا ينتظر المكافأة.. السيدة راشيل فعلت ما أملاه عليه ضميرها.. ثم إني تربيت على أيدي الراهبات الألمانيات، وأعلم أن الشعب الألماني ذو حس أخلاقيٍّ عالٍ جدًّا في مثل هذه الأمور.

ـ يمكنك على الأقل التبرع بشيء لصالح ضحايا النازي.

ـ أظن أن المرء يتبرع للقضايا التي تشغله، لا تلك التي تفرضها عليه الظروف.

ـ صحيح، ولكن هل كونك مصرية يمنعك من التبرع لهذا الغرض؟

ـ كوني إنسانة لا يمنعني من التبرع لأي غرض أراه وأعتقد فيه.. ولكنني لن أقبل أن يُفرض عليّ توجه معين.

ـ وألا ترين أن ضحايا الهولوكوست يستحقون مثل هذا التبرع؟

ـ بالتأكيد، هم تعرضوا لبشاعة وجرم عظيم.. دعني أنا أسألك: هل تم تعويض كل ضحايا الهولوكوست؟

ـ بالتأكيد لا، ولكن كل من يستطيع أن يساهم يفعل ذلك.

ـ سأعيد سؤالي لعلي أكون أكثر وضوحًا: هل تم تعويض البولنديين والسلاڤيين والغجر الذين قتلهم هتلر مع اليهود في أفرانه؟ هل سمع العالم صوت أنين هؤلاء، مثلما سمع عن مأساة اليهود؟ هل تم تعويض الهنود الحمر في أمريكا، أو الأرمن على ما تعرضوا إليه من مذابح علي يد الأتراك ؟ ولعلي أسألك هل اعترف الأتراك بما فعلوا بالأرمن؟ لا أقلل بأي حال من فظاعة ما عانى منه اليهود تحت حكم الرايخ الثالث، ولكنني أشير لضحايا آخرين وبنفس الكثرة، لم تصل مأساتهم لمسامع العالم كغيرهم.. أو لنقل أن أصواتهم كانت خافتة، لم تؤثر بالدرجة الكافية في ضمائر البشر.

ـ تطرحين نقطة ممتازة.

ـ أو لعلي أتبرع لضحايا الصراع الفلسطيني، ومن شردوا وقتلوا طوال سنوات دفاعًا عن وطن سُلب منهم.

ـ هذه قضية أخرى يا ليلى ليست موضوعنا.

ـ ولماذا لا تكون موضوعنا؟ ألسنا بصدد الحديث عن معاناة البشر على أيدي بشر أمثالهم؟

ـ البشرية خضم واسع يطول الحديث عنه.. دعينا نعود للكمان.

ـ لا من فضلك، دعني أواصل تساؤلي.. من يعوضني عن أبي الذي مات في حرب يدفع بها من اعتدوا على أرضه؟ هل توقف العالم عنده أم أنه أصبح مجرد رقم في مسلسل الضحايا؟ هل توقف العالم وحاول تعويض ضحايا صبرا وشاتيلا، أو دير ياسين؟ أم أن الآلة الإعلامية لم تجد فيهم مادة كافية للإثارة؟ أم لعل تلك الآلة موجهة لما يريده المسيطرون عليها دون غيره؟

ـ إذا تريدين التبرع للفلسطينيين ومن ماتوا في الحرب مع إسرائيل.

ـ قد تكون فكرة جيدة فعلًا.. لو بدأنا حصر من يستحقون التبرع في عالمنا فلن نستطيع.

ـ دعيني آخذك للكمان من جديد.. ماذا تنوين أن تفعلي به الآن وقد أصبح ملكا خالصا لك؟

ـ تشاركني ملكيته ابنة خالتي جريتا.. سنأخذ قرارنا بشأنه معًا.

ـ ألم تعرضاه من قبل للبيع؟

ـ نعم، وفي الغالب سنعرضه في المزاد من جديد.

ـ وهل تتفق معك جريتا على أوجه صرف ما تجنون من وراء بيعه؟ أتساءل بحكم كونها ألمانية.

ـ أجدك مصرًّا على توجيه ما هو حق لنا نحو فكرة مسيطرة عليك! جريتا نفسها تجربتها مريرة وهي ضحية أخرى من ضحايا أفعال البشر بالبشر.

ـ أعلم أنها كانت بطلة رياضية في ألمانيا الشرقية.

ـ وهل تعلم أنها على مشارف الموت تأثرًا بما فعلوه بها كي يحققوا البطولة.. من يتصدى الآن لجرمهم وما تسببوا فيه من ألم؟

لم يرد المذيع، واعتلت وجهه الحيرة.

ـ من يحاسب الشطط والجنون الذي يأتيه من حكموا الشعوب عبر التاريخ.. سأقول لك: لا أحد! تأتينا كتب التاريخ بحكايات عن جنون نيرون وهنري السادس والحاكم بأمر الله وكاليجولا وإيڤان الرهيب، ووصولًا لهتلر، فماذا فعلنا لضحاياهم؟ لا شيء! بل الأدهى أن الإجرام خلّدهم دون أن نعي الدرس، فنعود من جديد نسمح لمن يقودوننا إلى الهلاك في تقلد مقاعد الزعامة.. البشرية فيما يبدو ترفض حفظ الدروس.

ـ يحضرني سؤال مثير يا ليلى: هل تنوين الآن وقد عرفت أصولك أن تحصلي على الجنسية الألمانية؟

- الوطن بالنسبة لي هو مصر.. هي بلدي الذي أنتمي إليه.. لا أظن الوقت مناسبًا بالنسبة لي كي أعزز الاهتزاز الذي تتعرض له حياتي.

ـ ليلى حديثك به مرارة أقدرها.. دعيني أسألك سؤالًا أخيرًا قبل أن نفترق: ألا تفكرين أنت وجريتا أن تتبرعا بالكمان كإرث وتراث بشري إلى أحد المتاحف كي يتمكن أكبر عدد من التمتع به؟

فكرت ليلى برهة، ثم ردت بهدوء:

ـ لعلك تقترح ذلك على من يفوز بالمزاد.

برلين ـ ألمانيا

18 يناير 1993

حين غادرت ليلى مبنى الإذاعة، وجدت برلين قد قررت أن تحنو على سكانها، فأزاحت السحب وجعلت الشمس تسطع على غير موعد وسط شتائها القارس. ملأ الهواء البارد رئتيها، وزغللت أشعة الشمس عينيها بينما تمشي مسرعة صوب المستشفى. أعطاها حديثها الإذاعي طاقة إيجابية وتاقت لسماع رأي جريتا التي تمنت أن تكون معها، لولا أن أقعدها المرض.

لما فتحت باب غرفة ابنة خالتها، وجدت وجهها مضيئًا بابتسامة واسعة. ما إن رأتها حتى صاحت:

ـ تعالي هنا يا بطلتي.. تعالي وأعطني حضنًا كبيرًا.

طال حضنهما وليلى تخفف من مسكتها وهي تشعر بعظام جريتا الواهنة بين يديها، في حين استمرت المريضة في ضمها إليها بقوة. ما لبثت ابنة خالتها أن أفلتت يديها وأمسكت وجهها تتفحصه عن قرب، ثم لثمت خديها بقبلات متتالية وهي تقول:

ـ أفحمتيهم يا فصيحة.

اتَّسعت ابتسامة جريتا وهي تطلق سراح ليلى قائلة:

ـ انظري خلفكِ وقولي لي ما رأيكِ في هذه المفاجأة.

التفتت ليلى وتسمرت مكانها حين رأت الجالسة على المقعد:

ـ ماما!

ـ أوحشتيني حبيبتي.. أوحشتيني.

حضن آخر ارتمت فيه ليلى غير مستوعبة متى وكيف وصلت إيمان لبرلين. انهمرت الدموع في كل أنحاء الغرفة، قبل أن تكون جريتا الأولى التي كفكفت دموعها فتقاطع عناق الأم وابنتها قائلة:

ـ أظنكِ لن تعترضي على مفاجأتي هذه المرة.. طلبت من هيلموت أن

يحضر إيمان هنا واتفقت معهما ألّا يخبراكِ.

علت ضحكة ليلى:

ـ كنا معًا على التليفون بالأمس يا أمي، وقلتِ لي أنكِ ستزورين بعض الأقارب اليوم.. أنا وجريتا الأقارب!!

أبت ليلى إلا أن تجلس كطفلة صغيرة على نفس مقعد إيمان. أحاطت بيديها أمها وأخذت تقبلها وتضمها، مقاطعة كل حين الحديث الفرح الذي دار في الغرفة. كانت أمها تتحدث الألمانية بدرجة مقبولة، فقد درست على يد معلم خاص وقت التحقت ابنتها بمدرسة الراهبات الألمان بالقاهرة.

في البداية، تبادلت البنتان قص ما مرتا به منذ عرضتا الكمان للبيع، والضجة الصحفية التي صاحبت ذلك. حكتا لها كيف فقدتا الأمل في الاحتفاظ به، وكيف كان توجه النيابة أن يصادروه ويحيلوا الأمر برمته للمحاكمة. كان أكثرهم ذعرًا هو المحامي، الذي ظن أن الأمور لو وصلت إلى المحكمة، ومع الضغط الإعلامي، ففي الأغلب لن يأتي الحكم لصالحهم.

ـ ثم أخطرونا صباح الثلاثاء الماضي أن القضية تم حفظها، وأن بإمكاننا استلام الستراديڤاري.

ـ ظهرت راشيل وشهدت شهادتها فانتهت القضية.

استمر الحديث وطالت الحكايات حتى طلبت جريتا منهما:

ـ أريد أن أستمتع بالشمس.. خذاني لحديقة المستشفى.. واطلبي لي كوبًا من الشيكولا الساخنة يا ليلى.

دفعت ليلى بكرسي جريتا المتحرك نحو المنضدة التي توسطت الحديقة، ثم جلست هي وأمها بجوارها كل منهما على ناحية من المريضة. رشفت جريتا رشفتين من كوبها قبل أن توجه حديثها لإيمان:

ـ احكي لنا عن ليليان.. ماذا تذكرين عنها؟

ـ كانت سيدة لطيفة جدًّا.. أحببنا بعضنا بعضا كثيرًا، فقد صرتُ صديقتها الوحيدة أثناء وجودها في القاهرة.. لم تكن مجرمة بالتأكيد كما يزعمون، بل أستطيع الجزم بأنها لم تعلم بالجرائم التي أحاطت

بعملها إلا بعد انتهاء الحرب.

سكنت إيمان لبرهة ثم نظرت إلى ليلى قائلة:

ـ أحبتكِ كثيرًا أثناء حملها يا ليلى.. صارحتني عدة مرات برغبتها في الاحتفاظ بكِ.. وعلى قدر حزني أنا وأبيكِ لو انتهت لهذا القرار، لم أحاول إثناءها عن ذلك كلما طرأت الفكرة لذهنها.. في النهاية قامت بما رأته الأصلح لكِ.. كانت مذعورة من مطارديها ومرعوبة من مصيرها.. رعبها هذا جعلها تضحي بأغلى ما وهبته لها الحياة..

لا أتلمس لها العذر، لكنني تفهمت كيف اختارت هذا الحل القاسي.

ربتت جريتا على يد إيمان بحنو، وهي ترى ترقرق الدموع من مقلتيها.

ـ حبها الثاني والأثير كان أمكِ يا جريتا.. حكت لي كثيرًا عن هيلدا وعن موهبتها الفذة.. دائمًا ما وصفتها بأنها تمثِّل الهدوء والبلسم في حياتها.. تحدثت عنكِ أنتِ أيضًا وكم تمنت أن تراكِ يومًا.. كانت تحمل معها صورة لكِ مع أمكِ وصلتها في إحدى الرسائل عبر حائط برلين.

توقفت إيمان عن استرسالها فجأة، ووجهت حديثها لليلى إذ تذكرت شيئًا ألح عليها فجأة، لتخبرها به:

ـ اتصلت بي العقربة.

علت الدهشة وجه الفتاتين، فارتفعت ضحكة إيمان مفسرة:

ـ أم فريد.

ـ ماذا تريد؟

ـ نصيبها في الكمان على ما أظن.

استمرت جلستهن وتوالت الابتسامات والضحكات. استفاضن من دفء الشمس حتى استأذنتهن في الرحيل. مع انسحاب آخر أشعة القرص المكتسي حمرة، دفعت ليلى كرسي جريتا وتبعتهما إيمان في طريقهن إلى الغرفة. لعلعت ضحكاتهن في جنبات المستشفى، وكأنهن مراهقات يتبادلن أسرار الغرام.

برلين ـ ألمانيا

8 فبراير 1993

كان قد مر أسبوع منذ انتهاء المزاد وبيع الكمان، حين رن هاتف هيلموت بالمكالمة المنتظرة:

ـ السيد هيلموت.

تعرف المحامي على الصوت القادم عبر الهاتف على الفور.

ـ نعم.

ـ هل جهزت ما اتفقنا عليه؟

ـ نعم.

ـ إذًا نلتقي اليوم في تمام الرابعة عند بيت الأفاعي.

كانت المكالمة المقتضبة نسخة مطابقة من التي سبقتها قبل شهر أو أكثر. بوغت هيلموت حين دق هاتفه ذلك اليوم..

ـ السيد هيلموت؟

ـ نعم.. من معي؟

ـ لا يهم من.. ما لا بد أن يهمك هو قدرتي على تحويل مسار قضية الكمان لصالح موكلتَيك.

حاول أن يتملك زمام الأمر، فأضفى الكثير من الحزم في صوته:

- لن أستمر على الخط إن لم أعرف من يحدثني على الطرف الآخر.

ـ سأنتظرك في الرابعة عصرًا في حديقة الحيوان.. عندها سأطلعك على كل شيء.. وسأعرض عليك المطلوب.. الرابعة عصرًا في بيت الأفاعي.

انتهت المكالمة قبل أن يستطيع الرد. وبرغم امتعاضه لم يقدر أن يتجاهل الدعوة، فذهب يومها في الموعد المحدد لا يدري من سيقابل

ولا المعلومات التي سيتمكن من خلالها من الفوز بقضية الستراديڤاري. كانت المقابلة على نفس اقتضاب المكالمة التي سبقتها. اقتنع هيلموت بأهمية الصفقة المعروضة، ونقل رغبته في إتمامها لجريتا وليلى، باذلًا جهدًا جهيدًا في إقناعهما بأن ما سيدفعانه ضئيل بالمقارنة بما قد يخسرانه إن لم يقبلا بالعرض.

حديقة حيوان برلين من أقدم حدائق الحيوان في العالم، أسسها الملك فريدريك وليم وزوجته. مثلها مثل كل ما في برلين، دمرها قصف الحلفاء إبان الحرب العالمية الثانية، ومثلها مثل مدينتها التي انقسمت لشطرين، صار لكل شطر حديقته. حين اتحدت ألمانيا من جديد، عاد للحديقة الأصلية رونقها وأصبحت حديقة الناحية الشرقية أقل أهمية.

وصل هيلموت قبل الميعاد وهو يحمل حقيبة سوداء مكتظة. كان قلقًا أن يكون هناك من يتبعه، فأكثر في طريقه من تغيير خطوط القطار واتجاه السير، بينما يوالي تفحص من حوله ليتأكد أنه غير مراقب.

حين وصل إلى الحديقة، أحس بالندم لكونه لم يغير ملابسه، وأنه ظل بالبدلة ورباط العنق. جلس على أحد مقاهي الحديقة وطلب مشروبًا، وظل يتحقق من الساعة حتى قاربت عقاربها على الموعد المنتظر. كان حسه القانوني يؤرقه، وإن ظل يؤكد لنفسه أن ما هو بصدده ليس مخالفًا للقانون، ولا لما اعتاده من التزام في ممارساته للمحاماة. ربما يكون متخطيًا بفعله بعض الحدود الأخلاقية ولكنه لا يرتكب جُرمًا. كانت قضية الستراديڤاري أكبر وأهم القضايا التي تولاها. كان يفضل أن تكون نهايتها مع انتهاء المزاد وحصول موكلتيه على العشرة ملايين دولار التي حصدتاها من إرثهما. تردد قليلًا وهو في طريقه لبيت الأفاعي أن يكون مقدمًا على إجراء غير قانوني، ولكنه عاد فطمأن نفسه أن المبلغ الذي سيسلمه يقع في تلك المنطقة الرمادية التي تفشل قوانين البشر في التعامل معها. صفقة اتفق أطرافها عليها بحيث يكون الكل فائزًا. تذكر حين جاءه العرض ونقله إلى جريتا وليلى، وكيف اندهشتا فكان تساؤل الفتاتين واحدًا:

ـ هل هو حق لنا أم اغتصبه جدنا من أصحابه؟

ـ حق لكما دون شك.

ـ إذًا فلماذا ندفع ما دام لا يوجد هناك شك؟

ـ في أحيان كثيرة ندفع عدة مرات للحصول على ما لا نزاع فيه.

ـ وماذا لو أُفشي السر؟

ـ ستكون مشكلة من قايض من أجل قول الحق، لا مشكلتكما.. عمومًا سأحضر الأوراق التي تظهر أنكما تبرعتما بهذا المبلغ برضاكما ودون انتظار مقابل.

وافقت جريتا وليلى على اقتراحه. أقنعهما أن ما سيؤول لهما من البيع أكثر مما توقعا، فلا بأس من دفع بعضه كي تؤمنا انتهاء القضية وتستطيعا طرحه في المزاد من جديد. بفضل سنوات عمله الطويلة كمحام كان يدرك أن المثالية عند البشر سرعان ما تختفي خلف وهج الثروات.

لم يطل انتظاره عند بيت الأفاعي، إذ ما لبثت أن ظهرت من كان بانتظارها. تقدمت نحوه بخطوات ثابتة وحيَّته سريعًا ونظرها مثبت على الحقيبة التي يحملها.

ـ الحقيبة بها مائة ألف دولار كما طلبتِ.. باقي المليون دولار تم تحويله إلى الحساب البنكي في نيويورك طبقًا لتعليماتكِ.. صورة التحويل في مظروف داخل الحقيبة.

ردت راشيل بهدوء:

ـ أشكرك.

مد يده بالحقيبة فأخذتها منه ببرود، ثم أدارت له ظهرها عائدة من حيث أتت. خطت خطوتين قبل أن تلتفت من جديد إلى حيث ما زال المحامي واقفًا. توجهت نحوه فأخذت ذراعه وهي تقوده نحو أحد آرائك الحديقة:

ـ دعني أحكي لك يا سيد هيلموت.. لم أتاجر بالقضية يومًا ولم أتكسب منها كالآخرين.. حقي أن أؤمن ما تبقى لي من عمر.

التزم الصمت وهي تلتقط أنفاسها لتعود من جديد:

ـ ليس بي ندم على ما طلبته منكم.. نعم استغللت الموقف، كان يمكنني أن أكون بطلة حين أتسبب في ضياع الكمان منكم، حسبت أن البطولة لا ثمن لها بين البشر، فوجدت الأجدى أن أعقد صفقة.. أظن أن أبي سيفخر بي حيث يكون، كون ابنته ماهرة مثله في عقد الصفقات. أجمل ما في هذه الصفقة أني لم أحتج سوى أن أقول الحقيقة.. عمومًا لا تقلق، حين أرحل سأوصي بما تبقى من مال من أجل القضية.

استمر على صمته وهو لا يجد بنفسه رغبة في أن يريحها بالتصديق على ما تقول؛ فاسترسلت وهي مستمرة في حالة دفاع عن نفسها كمتهم أمام قاضٍ:

ـ فكرت مليًّا، ووجدت أن ما أطلبه معقول، بل شرعي أيضًا.. ڤايتسمان الذي أقام عليكم دعوة المنازعة هو أيضًا مقتنع بما قلته لك.. بالمناسبة، لا تقلقوا منه مجددًا، فله نصيبه في المبلغ ولن يتسبب في إزعاجكم مجددًا.. حققنا انتصارات عدة للقضية، بل نجحنا في جعلها تؤرق الضمير الإنساني، لذا يحق لنا الآن أن نحصد هذه المكافأة.

ابتسمت ابتسامة واسعة وقالت له قبل أن تمضي:

ـ كلنا ضحايا يا عزيزي.

لم يدرِ إن كان صاح بها أم أن صوتًا داخليًّا علا يقول:

ـ ضحايا تتحين فرصة أن يصبحوا جلادين.

Table of Contents

حدث في برلين
إهداء
برلين ـ ألمانيا
8 يناير 1993
برلين ـ ألمانيا
9 نوفمبر 1938
برلين ـ ألمانيا
1 ديسمبر 1939
برلين ـ ألمانيا
30 نوفمبر 1939
القاهرة ـ مصر
20 أكتوبر 1992
بوينس أيرس ـ الأرجنتين
11 مايو 1960
بوينس أيرس ـ الأرجنتين
20 مايو 1960
برلين ـ ألمانيا
13 أغسطس 1961
برلين الغربية ـ ألمانيا الغربية
10 يونيو 1962
برلين الغربية والشرقية ـ ألمانيا الغربية والشرقية
21 ديسمبر 1963
برلين الشرقية ـ ألمانيا الشرقية
18 ديسمبر 1963
برلين الشرقية ـ ألمانيا الشرقية
27 يناير 1964
القاهرة ـ مصر
3 نوفمبر 1992
برلين الغربية ـ ألمانيا الغربية
1 فبراير 1964
زرمات ـ سويسرا
5 فبراير 1964
چنوة ـ إيطاليا
7 فبراير 1964
القاهرة ـ مصر

17 فبراير 1964
القاهرة ـ مصر
22 فبراير 1964
القاهرة ـ مصر
3 مارس 1964
برلين ـ ألمانيا
16 مارس 1992
برلين ـ ألمانيا
15 فبراير 1987
سيول ـ كوريا
26 سبتمبر 1988
القاهرة ـ مصر
11 مارس 1964
القاهرة ـ مصر
20 مارس 1964
القاهرة ـ مصر
6 نوفمبر 1964
برلين ـ ألمانيا
3 نوفمبر 1992
برلين ـ ألمانيا
3 نوفمبر 1992
سانتياجو ـ شيلي
14 يوليو 1985
برلين ـ ألمانيا
14 يناير 1993
برلين ـ ألمانيا
18 يناير 1993
برلين ـ ألمانيا
18 يناير 1993
برلين ـ ألمانيا
8 فبراير 1993